حليب بني غامق

حسين بكري

قصص قصيرة

الطبعة الأولى : ٢٠١٧
رقم الإيداع : ٢٠١٧/٢٨٧٦١
تصميم الغلاف : حاتم بكري

الناشر : كتابى للنشر والتوزيع
١١ شارع ابن الغنام - الظاهر - القاهرة
تليفكس : ٠٠٢٠٢ ٢٧٨٧٩٧٩١
٠١٠٠٣٩٩٣٢٣٧ - ٠١١٤٠٠٣٠٠١٣
المدير العام : محمود فاروق
kitaby@yahoo.com

حليب بني غامق

حليب بني غامق

قصص قصيرة

حسين بكري

إهداء

إلى من قرأني، ويقرأني، وسيقرأني

إلى ذكرياتي وذكرياتهم، وأحلامي وأحلامهم

إلى أحلامٍ لم تتحقق، لحكمة من الله يعلمها

ولا أعلمها.

وشكر

شكرا لكل من ساهموا بموقف، بفكرة، بنقد، بتشجيع، بمناقشة، بتجسس مني على حركاتهم وتفاصيل اقترفوها ربما رأيتها -أنا- بطريقة مختلفة.

إنهم يعرفون من هم، لكن أكثرهم لا يعرف من أنا.

مواق

عمل مرهق

أصعد درجات السلم بملابسي التي بللها المطر نحو الطابق الأول لبيت خالتي. أقف حائرًا لا أدري أي من هاتين الشقتين هي شقتها، هذه هي زيارتي الأولى لها بعد أن تركت شقة الوايلي لتنتقل للسكنى هنا في حي الزيتون.

تجاوزت الساعة الثانية صباحًا ولم يكن من المنطق في مثل هذه الساعة أن أحاول التخمين أو أن أحاول طرق باب إحدى الشقتين، فإن لم تكن هي شقتها فيمكنني ساعتها الاعتذار لمن سيفتح لي الباب.

اتصلت بي خالتي وأنا في القطار بعد أن تجاوز سوهاج بقليل. أخبرتني العنوان بالتفصيل، لكنها نسيَت تمامًا أن تخبرني هل هي في الشقة التي على يمين السلم أم تلك التي على يساره.

فرغت بطارية هاتفي المحمول قبل وصولي إلى محطة مصر. حاولت قبلها مرارًا أن اتصل بها لأسألها عن رقم الشقة، وفي كل مرة أسمع هذه المرأة شبه الآلية برسالتها الشهيرة: "إنّ الهاتف المطلوب ربّما يكون مغلقًا".

وقفت أنظر إلى بابي الشقتين أستنطقهما أن يخبراني أيهما هو الباب المطلوب. استندت بعدها إلى سور السلم أفكر في حل.

اقتربتُ من أحد الأبواب مقربًا أذني لعلي أسمع صوتًا مألوفًا لديّ. أو يصل إلى سمعي صوت خالتي بلهجتها الصعيدية المطعّمة بألفاظٍ قاهريّةٍ

تشكل بها لهجةً جديدةً مميزةً محببةً إلى قلبي. لم يصل إلى أذني سوى الصمت.

تحرّكت في اتجاه الباب الآخر. قرّبت أذني أكثر من الباب. قررت بيني وبين نفسي أنني لو استمعت لأي حركةٍ ولو خفيفة أو لصوتٍ ولو واهن، مألوفًا كان أو غير مألوف، فسأطرق الباب فورًا أيًا كانت النتيجة.

جاءني الصمت مرةً أخرى معلنًا أنّه في مثل هذه الساعة وفي مثل هذا الطقس البارد والسماء الممطرة، فقط هم المجانين والعشاق هم من يمارسون لعبة السهر، لذةً كانت هذه اللعبة أم أنها كانت ألمًا.

لم أكن من هؤلاء المجانين ولم أكن أيضًا من هؤلاء العشاق. حتى عندما جربت العشق -ذات مرة- لم أتمكن -أبدًا- من السهر حتى هذه الساعة. لم أكن أدرك -أبدًا- دقات الثانية عشر صباحًا إلا لسبب خارج عن إرادتي، ليس في الشتاء فحسب بل وفي الصيف أيضًا.

كان يفترض بي الآن أن أكون في الفراش لولا عطلٌ أصاب القطار جعله يتأخر أكثر من خمس ساعات عن موعد وصوله.

باءت كل محاولاتي بالفشل وأنا أحاول أن أحصل على مكان ولو مقرفصًا أو منحنيًا بجوار باب أحد الميكروباصات التي كانت ما إن تأتي حتى ترحل وهي تحمل ما تنوء به من حمولة آدمية وشبه آدمية. اختفت بعدها تمامًا عن الموقف. وظللت أنا أرتعد من البرد في انتظار الفرج.

مرّت سيارة ميكروباص خارج الموقف. وقف على بابها هذا المنادي صغير السن وهو يرتدي ملابس لا تتناسب أصلًا مع بداية الخريف فما بالك بمنتصف الشتاء. أخذ ينادي بصوتٍ يحاول أن يبدو أكثر قوة ورجولة وسوقية: "جسر السويس، ألف مسكن .. ألف مسكن، جسر السويس".

يعلم تمامًا أنه لو أدرك أحدهم أنه لم يصل إلى سن البلوغ بعد فسوف يتلقى معاملةً هو نفسه أرعبته لمّا رآها تحدث لأحد رفاقه من قبل.

سألتُ أحدهم على الفور إن كان هذا الميكروباص يذهب إلى حي الزيتون. أجابني بسرعة وهو يقفز ليلحق له مكانًا في الميكروباص:

- سيمر من هناك. اركب بسرعة.

ما كدت أصل إلى هذا الحي حتى بدأت الرحلة تأخذ اتجاهًا آخر. سألت أكثر من واحدٍ عن العنوان الذي معي. جاءتني إجاباتٌ أوحت إلي أنني أبحث في دولةٍ وليس مجرد حيٍّ من أحياء القاهرة. كان عليَّ أن أتسلّق الكوبري الذي يعلو مترو الأنفاق أكثر من مرّة.

منهم، من قال أن شارع خالتي بالجهة الأخرى ومنهم من أخبرني أن من أرشدني أولًا قد أخطأ ولابد من أن أتسلّق الكوبري مرّة أخرى في الاتجاه العكسيّ.

وصلتُ أخيرًا إلى الشارع. وبتذكّر وصف خالتي للمنزل الذي بلا رقم، استطعت الوصول -أخيرًا- إلى المنزل.

تناهى إلى سمعي وأنا أقف حائرًا في المنتصف بين الشقتين صوت ارتطام بشيءٍ معدنيٍّ أسفل السلم. ربّما قطّة أو ربّما هو ابن عرس وقد ارتطم بإحدى صفائح القمامة وهو يسلك طريقه محاذيًا سور السلم صاعدًا إلى أعلى يبحث عن حظيرة دجاجٍ تكون صاحبتها قد نسيت أن تؤمّن مداخلها جيدًا.

نظرتُ من مسقط السلم محاولًا أن أتبين ما هناك. فكّرت -أيضًا- أنّه ربما يكون هناك من عاد إلى المنزل في هذه الساعة. دققتُ النظر محاولًا أن

أتبين ما حدث. انتظرتُ أن يتكرّر الصوت أو أن يتحول إلى خطواتٍ تصعد السلم. لكنّ هذا لم يحدث.

أنتظرتُ مقررًا بيني وبين نفسي أنّه لو فتح أحدهم أي بابٍ، أيًا كان، فسأنزل على الفور لأطرق هذا الباب لأسأله عن شقة خالتي. لكنّ هذا - أيضًا- لم يحدث.

تناهى إلى سمعي همهماتٌ وصوت حفيف ملابس خفيف. كأنّ أحدهم تحتكّ ملابسه بأحد الجدران. تحرّكتُ بهدوءٍ نحو الجهة الأخرى من السلم. نظرتُ بحذرٍ إلى أسفل. ظهر أمام عينيّ خيالٌ لشخصين متعانقين.

ما إن اعتادت عيني على الضوء الخافت في الطابق الأرضيّ، حتى استطعت أن أتبين بوضوحٍ فتاةً مستندةً إلى الحائط تحيط يداها برقبة شابٍ ألصقها إلى الحائط والتصق هو بها، وغابا معًا في مداعباتٍ غير بريئةٍ منه وقبلاتٍ محمومةٍ من كليهما.

ظلّا هكذا لدقائق. كنت مستمتعًا نوعًا ما بالتلصص عليهما. تمنيت -في نفسي- أن لو كنت مكان هذا الشاب، رغم أنّني لم أرَ الفتاة بوضوح. كان هو -فقط- من استطعت أن أتبيّن ملامحه. دَفَعَته الفتاة فجأةً بعيدًا عنها وهي تهمس له بكلماتٍ لم أتبينها. توقعتُ أنها خافت أن تصل إلى نقطةٍ لا تملك ساعتها الرغبة أو حتى القدرة على إيقافه.

صَعَدَتْ السلّم مسرعةً، فتحرّكتُ أنا على أطراف أصابعي نحو الطابق الأعلى خوفًا من أن تراني.

قبل أن أصل إلى الطابق الثاني كانت هي قد توقفت عن الصعود. أدركتُ حينها أنها تسكن في الطابق الأول.

توقفتُ خلف دوران السلم أرهفُ السمع. وصل إلى أذنيّ صوت باب إحدى الشقق وهو يُفتح ثم يُغلق مرةً أخرى.

هبطتُ السلم على أطراف أصابعي. نظرتُ نحو الشقتين. لمحتُ إحداهما وقد تسرب أسفل بابها شعاعٌ من الضوء الأصفر.

جلست على درجات السلم المتجه إلى أعلى أفكر. هل أطرق الباب الآن أم أنتظر؟ هناك أخيرًا من لا زال مستيقظًا في هذا البيت ويمكنني سؤاله أي الشقتين هي شقة خالتي.

قررتُ الانتظار قليلًا. فكّرت أنني لو طرقت الباب الآن فستظنّ الفتاة أنّي لمحتها وهي تبادل فتاها الغرام أسفل السلم.

طرقت الباب مترددًا. جاءني صوتها من الداخل مرتعشًا:

- من؟

أجبتُ بصوتٍ منخفضٍ سائلًا:

- أبحث عن شقة الحاجّة نعمة؟
- هذه شقتها. من حضرتك؟

شقتها! لم أتوقّع هذه الإجابة. كنت أتوقّع أو ربّما أتمنى أن تجيبني أنها الشقة الأخرى. تعجبت! إذن هذه هي شقة خالتي. إذن فهذه الفتاة التي كان يُعبث بجسدها وأُرهِقَت شفتاها من القبلات منذ قليل هي "منى"، ابنة خالتي.

سألتها مرتبكًا:

- هل أنتِ منى؟
- من أنت؟

- أنا "خالد"، خالد منصور، ابن خالتك

سادت برهةٌ من الصمت. فتحتْ بعدها منى الباب. بادرتها محاولًا أن أبدو طبيعيًا وكأني لم أشاهد لقاءها المحموم منذ قليل:

- مساء الخير يا منى أو ربما من الأفضل أن أقول صباح الخير. آسف لأنني أيقظتك في مثل هذا الوقت. لكن القطار ...

تعمدت أن أذكر كلمة أيقظتك. ويبدو أيضًا أن هذه الكلمة قد هدّأت من روعها قليلًا. قاطعتني قائلة:

- مساء الخير يا خالد.لا عليك، أنا لم أنم بعد، تفضّل يا خالد. حمدا لله على السلامة.

دعتني للجلوس على أحد المقاعد حول سفرةٍ صغيرةٍ في الصالة الضيقة، وقفتْ وهي تمسك بطرف الجاكيت الذي ترتديه وتحاول جذبه إلى أسفل. كانت كمن تحاول أن تداري آثارًا تعرف هي وحدها أنها الوحيدة التي تشعر بها، لكنها -على الرغم من هذا- لا تزال تشعر بالقلق.

جَلَستْ بسرعة على مقعد السفرة الذي في مقابلتي حتى تجعل من هذه السفرة -على صغرها- حاجزًا بيني وبين ما تشعر -هي وحدها- به.

سألتني فجأة، كأنها ترغب في التأكّد من أنّني لم أكن هناك حين خرج فتاها من المنزل:

- متى وصلْتَ؟

سؤال غير مدروس. فما دمت جئتُ الآن فقد وصلتُ الآن. لكنني أعلم بالطبع ما دفعها لهذا السؤال. دفعني عقلي -أنا أيضًا- لأن أثير شكوكها قليلًا. أجبتها:

- منذ عشر دقائق

أربكتها الإجابة. مدّت يدها تخرج هاتفها المحمول من حقيبتها. بدأت في العبث به كأنها تخرج فيه ما اعتراها من ارتباك.

أردفت بسرعة محاولًا تهدئتها وإثارة فضولها في نفس الوقت:

- أقصد وصلتُ إلى شارعكم منذ عشر دقائق، لكن حدث أمر جعلني أتوقف بعيدًا قبل أن أحضر إلى هنا.

سألتني بسرعة:

- أمر، أي أمرٍ في هذه الساعة!

لم أجبها على سؤالها. كنت أرغب في مزيد من الوقت حتى أفكّر فيما سأقول.

أجبتها سائلا:

- هل يمكنني أولًا أن أتناول كوبًا من الشاي؟ فأنا أحتاج بشدة لكوبٍ من الشاي.
- أكيد، بالطبع، حالًا

قامت واستدارت بسرعةٍ نحو المطبخ الضيّق وهي تجذب الجاكيت الذي ترتديه لأسفل مرة أخرى. كان المطبخ قريبًا جدًا وبلا باب يحجبه عن الصالة. أستطيع بوضوحٍ أن أراها من مكاني وهي تتحرك داخله.

تعجبت أنها لم تضئ نور المطبخ معتمدةً على الضوء الصادر من الصالة. ظللت أراقبها وهي تقوم بعمل الشاي.

كانت تتحرك بآليةٍ، لكن بسرعةٍ ملحوظة. وَقَفَتْ أمام البرّاد بعد أن وضعتْ السكر والشاي في كوبٍ زجاجيٍ وهي تستحثّه أن يسرع في الغليان.

كنت قد فكرت فيما أنوي فعله. لم أكن أعلم أنّ لديّ القدرة على اختراع الحكايات إلّا في هذه اللحظة.

عادت بعد دقائق. وضعتْ كوب الشاي أمامي. ثم جلست أمامي صامتة.

تذكرتُ أنها لم تسألني عن عدد ملاعق السكر ونوعية الشاي الذي أفضله. قلت لها بعد أن ارتشفت رشفةً من كوب الشاي:

- رغم أنك لم تسأليني عن طبيعة الشاي الذي أفضله، إلا أنّني أفضله هكذا تمامًا.

ابتسمت ابتسامة مجاملة، وبلا مذاق. سألتني بعدها:

- لم تخبرني عن الأمر الذي عطّلك عن المجئ إلى هنا.

تشاغلت بارتشاف الشاي قليلًا، كنت أنظر إليها من أعلى حافة الكوب. رفعت عينيها لتنظر إليّ، ثم حوّلتهما بسرعة نحو هاتفها المحمول. لم أشأ أن أطيل الصمت. أجبتها بهدوء:

- أبدا. ما إن اقتربت من مدخل الشارع حتى لمحت شابين يقفان قريبًا من منزلكم. دقيقةً وخرج شابٌ آخر من المنزل. ما إن اقترب منهما. حتى أشهر أحدهما مطواةً في وجهه.

تعمدت أن أتوقّف قليلًا عن الحديث لأخذ رشفة من كوب الشاي. لا أدري هل كنت أسمع دقات قلبها في هذه اللحظة. أم أنّ تنفسها الطبيعي وصدرها الذي يعلو ويهبط بسرعة هما من أوحيا إليّ بذلك.

تنازلتْ عن هدوءها وسألتني بلهفةٍ وقد تغيّرت ملامحها:

- أكمِل

- لا شيء، انتظرتُ حتى انتهى الأمر وجئتُ إلى هنا.

صمتتْ لبرهة كأنها تبحث عن سؤالٍ تستطيع سؤاله. سألتني بعدها وهي تحاول أن تجعل السؤال يبدو كأنه مجرد فضولٍ أو اهتمامٍ نوعًا ما بما حدث لي:

- أخبرني بما حدث بعد ذلك، أريد أن أعرف.
- لماذا؟، الأمر غير مهم
- أخشى أن يكونوا قد تعرضوا لك بسوء مع ذلك الشاب.

وضعتْ يداها في جيبَي الجاكيت ثم أردفتْ:

- أنت أيضًا قلت أن الشاب قد خرج من منزلنا. من الممكن أن يكون أحد الجيران

أجبتها بهدوء:

- هم بالفعل قاموا بجريمةٍ، ولكن ليس لي بل للشاب.
- جريمة؟ هل ضربوه أو ...

ارتَبَكَتْ قليلا ثم أردفَت:

- أخشى أن يكون بالفعل أحد جيراننا. معظم الشباب هنا طيبون ومحترمون.
- ربما تعتقدين أنتِ أنهم كذلك. أحيانا يستحقون ما يحدث لهم. وربما هو عقابٌ لهم على أمرٍ ما فعلوه في الخفاء.

يبدو أن كلماتي قد تُرجِمَتْ لديها بطريقتها الصحيحة. لكنها لم تعلّق.

- ما حدث أنّهم بعد أن أوقفوا الشاب. قام أحدهم بشلّ حركته وانهالوا عليه ضربًا، ثم قاموا بعدها بتفتيشه. أخذوا منه هاتفه المحمول والنقود التي في حوزته.
- هل كانت معه نقود كثيرة؟

أحسست أنّني أخطأت بذكر أمر النقود. لم أتوقع أن تسأل. ربما هي تعلم تمامًا ما في جيبه من النقود. استدركتُ قائلًا:

- لا أدري. لكنهم كانوا يفتشون جيوبه. فتوقعت أنهم لابد قد حصلوا على نقوده. كنت وقتها مختبئًا خلف إحدى السيارات على ناصية الشارع أتابع الموقف من خلال زجاج السيارة. لم يكن المشهد واضحًا تمامًا بالنسبة لي.

جيدٌ أنني استطعت الخروج من هذا المأزق. سَأَلَتْني:

- إذن فأنت لا تستطيع معرفة ملامح الشاب.

ابتسمتُ قائلًا:

- ليس تمامًا، لكنه في طولي تقريبا ويرتدي جاكيت شتوي
- ماهو لون الجاكيت؟

ألقت سؤالها هذا لا شعوريًا. أجبتها وكأنني لم أدرك مغزى السؤال:

- كان جاكيت من الجلد. أسود اللون أو أزرق على ما أعتقد. لكن، لماذا؟

أجابت بسرعة وكأنها كانت تتوقع هذا السؤال فقامت بتجهيز الرد:

- أنا أعرف تقريبًا جيراننا وتخيلت أنه سيمكنني إذا كان لون الجاكيت مميزًا أن أعرف من هو هذا الشاب.

ابتسمت وسألتها مبديًا قدرًا ضئيلًا من السخرية:

- وهل استطعتِ التخمين؟

أجابت بسرعة:

- أسود أو أزرق ليس من الألوان المميزة للأسف.

ابتسمتُ ابتسامةً ماكرةً وأنا أنظر إليها لكنها كانت تعبث في هاتفها المحمول ولم تنتبه.

أردفتُ قائلًا:

- ما أدهشني هو أنّهما بعد أن قاما بالاستيلاء على ما معه. أمسك أحدهما بياقة الجاكيت وتوجه إليه قائلًا:

ارتشفتُ رشفاتٍ أخرى من كوب الشاي، الذي كان قد أعلن أنه إن لم أنته من شربه فسيبدأ في التحول إلى كوبٍ من الشاي المثلج بفعل برودة الطقس.

انتَظَرَتْ أن أكمل وهي تتابعني وأنا أرفع كوب الشاي إلى فمي ثم أمسكه بيدي ثم أكرر هذه الحركة لمرات.

تحاشيتُ النظر إليها مباشرةً وإن كنت ألمحها بطرف عيني وقد توقفتْ عن العبث بهاتفها المحمول منتظرةً أن أكمل.

أكملتُ كلامي قائلًا:

- قال له "لو رأيتك في هذا الشارع مرة أخرى أو رأيتك تمشي مع هذه ال.....

توقفتُ عن الكلام قليلًا ثم أردفت:

- آسف، فقد قال كلمةً قبيحةً وسوقية. لا يمكنني أن أنطقها أمامك.
- نحن نسمع هنا كل أنواع الألفاظ القبيحة. لا تقلق، يمكنك قول ما تريد.

لم أتوقع هذا الرد وإن كان أوحى لي بعدم اكتراثها بسماع هذه الألفاظ حتى ولو قيلت لها مباشرة وجهًا لوجه. تعمّدتُ إحراجها أكثر، فأردفتُ قائلًا:

- ربما تسمعينها كثيرا، لكنني لا أستطيع نطقها، خاصة أمام فتاةٍ محترمةٍ مثلك.

شعرتُ بها وقد أربكها ما قلت. تعمّدتُ أن أسألها بعدها:

- لكن من تكون هذه الفتاة. أنا لم أشاهد أي فتاة معه.

حاولت أن تتماسك وألقت هاتفها المحمول على السفرة. ثم أجابتني بهدوء:

- لا أعلم، ربما لمحوه يمشي مع إحدى فتيات الحي.
- إذن فهي تستحق كل ما قيل عنها. المهم، قال له البلطجي "لو رأيتك تمشي مع هذه الـ .... فلن أتردّد لحظة في عمل علامة على وجهك تتذكرني بها طوال العمر"
- بماذا أجابه الشاب؟
- ليست القضية في رد الفعل. لقد أجبره هذا البلطجي أن يعيد خلفه هذه الجملة أكثر من مرّة "لن أقترب من هذه الـ ..... وقال هذه الكلمة القبيحة عن فتاته، تخيلي؟!

صمتتْ، فأكملْت:

- الأدهى ، أنه أضاف لها ألفاظا أخرى من قاموسه الخاص.
- ماذا تقصد بألفاظٍ أخرى من قاموسه الخاص؟
- قال "سأقطع علاقتي تماما بهذه الـ... والـ... والـ..." وظل يردد قاموسًا من الكلمات القبيحة والأكثر سوقيّة عن هذه الفتاة. يبدو أنه يعرفها جيدًا ليصفها بهذه الأوصاف التي لا أشكّ أنها حقيقية.

أعرفُ أن كلامي أثار غيظها، لكنها كتمته داخلها ولم تحاول أن تظهره. أخذتُ أضحكُ بعد أن أنهيتُ كلامي. نظرتْ إلي مستفهمة:

- ما الذي يضحكك؟
- يضحكني أنّ هذه الفتاة ربما تعتقد أنها أحبّت رجلًا، مع أنها ببساطة قد أحبّت امرأة بشارب.

لفت نظرها كلمة "شارب" التي قلتها فسألتني مسرعة:

- هل كان لهذا الشاب شارب؟

فهمت ما ترمي إليه فلو كان له شارب، فهو بالتأكيد ليس الشاب الذي كان معها أسفل السلم. ففتاها حليق، حليق الشارب واللحية معًا.

- لا لم يكن له شارب. لكن الرجال لهم شوارب، يحلقونها أو يتركونها، لكننا في النهاية ندعوهم بأصحاب الشوارب.

جاءني سؤالها الآخير متأخرًا بعض الشيء. متأخرًا وقتًا ومتأخرًا ترتيبًا. كنت أتوقع أن تسأله مباشرة بعد أن أخبرتها أنهم أخذوا منه نقوده وهاتفه المحمول.

- هل قلت أنهم استولوا على هاتفه المحمول؟

- فعلا، استولوا على هاتفه المحمول. أعتقدُ أيضًا أنّ أحدهم سأله عن كلمة السر.
- لماذا؟
- قال أنه يرغب في العبث قليلا مع هذه الـ ..... مومس

اعتذرتُ عن الكلمة مسرعًا بينما ارتجفت أصابعها وهي تعبث في شاشة الهاتف.

قامت من مكانها فجأة. انحنت على المائدة ومدّت يدها إلى كوب الشاي الفارغ، وضَعَته على الصينية البلاستيكية الصغيرة. ثم تحركت في اتجاه المطبخ. عادت بعد ذلك ثم وقفت أمامي قائلة:

- أعتقد أنّك في حاجة إلى النوم.

أشارت إلى غرفة مغلقة، قائلة:

- هذه هي الغرفة التي ستنام فيها. سأحضر لك بطانية أخرى. فالجو هذه الليلة أكثر برودة.

قبل أن تتحرك إلى غرفتها لتحضر لي بطانية إضافية. أصدر هاتفها المحمول صفارة تشبه صوت العصفور. نَظَرَتْ في شاشة الهاتف.

توقعت أنا أن تكون هذه رسالة من الشاب. انتظرتُ أن تجيبه لكنها أغلقت الهاتف ووضعته في جيب الجاكيت وتحركتْ في اتجاه الغرفة. سألتها وهي تتحرك:

- هل صديقاتك يسهرن مثلك إلى هذا الوقت؟

التفتت إلى مستفهمة، أردفْت:

- مجرد تخمين. فرسالة في مثل هذه الساعة تعني أن إحدى صديقاتك ساهرةٌ حتى الآن.

أحسستُ أنني ما كان يجب أن أسألها هذا السؤال. هي أيضًا بدا عليها الضيق، ولولا بقايا خوف لا زال يتحكم فيها لما أجابت. أجابتني قائلة:

- لا، هذه مجرد رسالة دعائية

محاولًا تخفيف الموقف قليلًا:

- حقا، إنهم مزعجون. يرسلون هذه الرسائل ليلًا ونهارًا. ولولا أنّ بطارية هاتفي قد فرغت لكنت أريتك عددًا من الرسائل التي يرسلونها لي. إنهم أحيانا يعتقدون أنّني أحد رجال الأعمال أو أمتلك ثروةً لشراء إحدى الفيلات بالساحل الشماليّ.

ابتسمت ابتسامة بلا معنى ثم قامت من مقعدها قائلة:

- سأدخل لإحضار البطانية
- يبدو أنني أخّرتكِ عن النوم، أعتذر
- لا عليك. فأنا معتادةٌ على السهر. ظروف عملي تضطرني لذلك
- ظروف عملك؟!
- نعم، أنا أعمل ليلًا. لقد عدت إلى المنزل قبل حضورك بساعة تقريبا

رفعت حاجبَي متعجبًا وقلت لها مبتسمًا ابتسامة ماكرة:

- ساعة فقط؟! وفي هذا الشتاء! يبدو أنه عملٌ مرهق.

أعطتني البطانية بسرعة وأنا أقف على باب الغرفة ولم تجبني.

مياه لها مذاق مختلف

وقف عند مدخل الحارة رافعًا سيفًا يحركه يمينًا ويسارًا وهو يترنح غير متماسكٍ بفعل تناوله للبرشام. صرخ بكلماتٍ غير متزنةٍ ومتقطعة:

- لو فيكي راجل يا حارة يوريني نفسه .. يا ولاد الو....، يا حارة مـ....، يا حارة كلها نـ...".

استمر في تهليله وسبابه القبيح والحارة صامتة لا تنطق والشرفات ممتلئة بالنساء والأطفال ينظرون في صمت إلى هذا الهيكل العظمي الذي يصرخ فيهم محاولًا أن ينصب عوده المتراقص بفعل المخدر.

انتظر النساء من الرجال أن يخرجوا إليه وتمنى الرجال في قرارة أنفسهم أن تفقد نساءهم حاسة الفضول أو حاسة السمع أو كلتيهما معا حتى تنتهي وصلة القُبح والسباب التي تخرج من لسان ذلك البلطجي مدمن البرشام.

دخلت إحدى النساء من الشرفة تطلب من زوجها النزول. أجابها بهدوء يبدو على السطح تتماوج تحته موجاتٌ من الغضب المكتوم:

- سيرحل وحده الآن، وسيهدأ كل شيء.

ابتسمت له ابتسامة مهمومة. ثم قالت في سرّها:

- فعلًا، كل شيء يهدأ ويموت وحده وبدون أي تدخلٍ من جانبك ربما يرهقك أو يثيرك.

دخلت امرأةٌ أخرى تطلب من زوجها أن يحاول الاتصال بالشرطة. أجابها مستهزءًا:

- وهل تعتقدين أنّ الشرطة ستأتي إذا اتصلنا بها. الشرطة يا عزيزتي لا تهتم بالحثالة أمثالنا. حتى وإن قامت معركة وزهقت فيها أرواح فإنها ستنتظر بعيدًا حتى تنتهي المعركة ثم يأتون بعدها لحصر الجثث وحمل المصابين.

تحركت عروسٌ حديثة الزواج لم تكن دخلت إلى الشرفة بعد لتشاهد ما يحدث. أثارتها تعبيرات البلطجي والتي وإن كانت سوقية، إلا أنها تحمل داخلها ما يثير.

قام زوجها العريس وأمسك بها من الخلف يمنعها. ضمّها إليه، التحما معًا، أثارته هي، أثارها هو. ثم غيرا اتجاههما سويًا. سارت وهو يضمها من الخلف ويدفعها بخطواتٍ يتسارع إيقاعها نحو غرفة النوم.

أنصت شابٌ صغير السن لآهاتها التي تخترق النافذة التي لم تستطع رغم كونها مغلقة، منع آهاتها المثيرة. حاول أن يغلق أذنه عن الصوت القبيح للبلطجي الواقف على ناصية الحارة ويجعلها مخصصة فقط لآهات تلك العروس. أنصت إليها وهو يضع يده داخل ملابسه ليستخدمها في حمل سيف أخر يبدأ به معركة أخرى في عالم موازٍ لما يحدث خلف النافذة.

مر الوقت مهرولًا لدى الشاب، مسرعًا لدى العريسين، بطيئًا لدى غالب أهل الحارة، وبلا قيمةٍ لدى المترنح صاحب السيف.

ساد صمتٌ مفاجئ. هدأت أنفاس العروس وهي مشبعة بماء الحياة. هدأ الشاب صغير السن وهو ينثر في فضائه الضيق ماء الحياة. وسقط البلطجي على الأرض من تأثير المخدر فاقدًا الحياة حاملًا معه ما تبقى من ماء الحياة

الحب اللي كان

بدأ في تجهيز الطلاء وهو يدندن بمصاحبة أغنية ميادة الحناوي "الحب اللي كان". كان يستمتع بالعمل ليلًا. يقف على السلم الخشبي وهو يدندن معها بكلمات الأغنية التي يحفظها بتفصيلاتٍ لو أعادتها ميادة نفسها هي والفرقة الموسيقية لما استطاعوا أن يفعلوها بنفس الدقة. ربما الملحن نفسه لا يحفظ ألحانها وحركاتها وسكتاتها مثله.

تمايلت رأسه متأثرةً بحركة الفرشاة والأغنية والغازات الخفيفة المنبعثة من الدهان والتي خففت بما فيها من أبخرة دماغه المصفحة التي لم تستطع سيجارة "البانجو" التي دخنها منذ ساعات أن تقلل من تأثيرها.

سمع طرقًا على الباب لم ينتبه إليه في البداية. نزل من أعلى السلم وتوجه ليفتح الباب. كانت الابنة الصغرى لصاحبة المنزل التي استأجرته لدهان هذه الشقة لتزوّج فيها ابنتها الكبرى. لم يرها منذ وقتٍ طويل رغم أنهما يسكنان نفس الحارة.

هي الآن في الرابعة عشر. بدأ صدرها في الإعلان عن وجوده مكتملًا ناضجًا بكرًا نوعًا ما. تحمل في يدها صينية صغيرة عليها كوبٌ من الشاي وطبقٌ صغير به بعض من بسكويت العيد. يبدو أنه لم يجد ما يأكله بعد أن انتهى العيد منذ أكثر من شهر تقريبًا.

لم يدعها للدخول، لكنها هي التي تحركت للداخل وهي تحمل الصينية بين يديها. تحرّك خلفها. تابعت عيناه مؤخرتها الصغيرة المكتنزة والتي تملأ البنطال الضيّق المطاط تكاد تقسمه نصفين.

انحنت لتضع الصينية على الأرض. ركز نظراته أكثر ليكتشف باقي التفاصيل التي لا تظهر إلا بالانحناء. اعتدلت فهزّ رأسه محاولًا طرد رغباته الحيوانية.

سمعت الفتاة ميادة وهي تغني. التفتت نحو هاتفه المحمول الذي وضعه في مكانٍ يجعل الصوت أكثر وضوحًا. سألته بابتسامة:

- من التي تغني.
- ميادة الحناوي
- أول مرة أسمعها. صوتها جميل جدًا. ما اسم هذه الأغنية.

أجابها وهو ينحني ليلتقط كوب الشاي:

- "الحب اللي كان"
- الأغنية جميلة أيضًا.

لم يعلّق. تمنى أن لو انصرفت بسرعة. شعر أن وجودها معه يبعث فيه حيوانيته المكبوتة. ترك كوب الشاي وشغل نفسه بالعبث بالفرشاة في دلو الطلاء.

تحركت في اتجاه الباب وهو يتحاشى أن ينظر إليها، وقبل أن تخرج، توقفت قائلة:

- هل يمكن أن أحضر هاتفي المحمول وتنسخ لي هذه الأغنية؟

لم يكن يرغب في حضورها مرة أخرى. لكنّه لم يستطع إلا أن يوافق على طلبها.

وهي عائدة إليه مرةً أخرى سألتها أمها إلى أين هي ذاهبة. قالت لها أنها ستنقل بعض الأغاني من هاتف سيّد النقاش المحمول. لم تنتظر ردها، ولم تكن الأم سترد. غادرت الشقة وصعدت السلم نحو شقة أختها المستقبلية.

كان قد ترك الباب مواربًا. دخلت ووارته كما كان. أمسك كل منهما بهاتفه وأوصلاهما Bluetooth. فشل الاتصال أكثر من مرة. اقترب منها ينظر في هاتفها. نقر بأصابعه على شاشته وعيناه ترقبان نهديها المتماسكين.

نظرت إلى عينيه. نظر في عينيها. وتم الاتصال. بدأت الأغنيه في الانتقال من هاتفه إلى هاتفها، عشرون في المائة .. خمسون في المائة .. سبعون .. ثمانون .. مائة في المائة.

أخبرته بعدها أنها ترغب في إرسال أغنية له ليسمعها. وافقها. بدأت أغنيتها في الانتقال من هاتفها لهاتفه. طلبت منه أن يسمعها ويخبرها برأيه. شكرته على أغنية ميادة ومضت. راقبها هذه المرة وهي تخرج من الباب.

في اليوم التالي. طرقت عليه الباب. فتحه. سمعت أغنيتها ترد في فضاء المكان. ابتسمت. أخبرها أنها تعجبه جدًا. ابتسمت أكثر. رددا معًا بعض كلماتٍ من الأغنية. سألها عن دراستها. سألته عن سنه. تبادلا أرقام الهواتف.

بعد شهر، كانت أمها تضع لمساتها الأخيرة لشقة ابنتها الكبرى استعدادًا لليلة الزفاف. وكانت هي في غرفة سيد أعلى سطح منزله الكائن في منتصف الحارة، وتم الاتصال.

صرصور

انفضّ المقهى عن طاولةٍ وحيدة، بينما استلقت المقاعد الأخرى فوق الطاولات تنتظر على أملٍ أن ينفضّ الجالسون حول هذه الطاولة، ثم يبدأ عامل المقهى في كنس الأرضية ومسحها ويعيدها مرةً أخرى إلى الأرض لتستريح ما تبقى لها من الليل حتى يحضر زبائن الصباح.

خرج صرصورٌ صغيرٌ يستكشف المكان. حرك قرون استشعاره يمينًا ويسارًا وإلى الأمام. انزعج عندما أخبرته قرون استشعاره أنّ المقهى لم يفرغ بعد.

تحرّك يائسًا ليتسلق إحدى الطاولات الخالية وسار بهدوء نحو باطن أحد المقاعد منتظرًا أن يفرغ المقهى من ساكنيه من البشر حتى يبدأ ساكنيه من الصراصير في التنقل بحريةٍ أكثر في هدوء.

جلس المعلم منصور وقد وضع أوراق الكوتشينة أمامه وتناول سيجارته التي وضعها على حافة المستطيل الرخاميّ الذي يشكل سطح الطاولة. أخذ منها نفسًا قصيرا وتركها بين أصابعه منتظرًا أن ينتهي الأسطى سيّد -خصمه في اللعب وأحيانًا في الحقيقة- من إلقاء إحدى أوراقه.

ألقي سيّد بالولد وجمع كل ما على الطاولة من أوراق. جذب منصور نفسًا آخر غاضبًا وطويلًا، ثم وضع السيجارة على حافة الطاولة. مدّ يده ليمسك بأوراقه مفكرًا في الورقة التي سيرميها هذه المرة.

جلس حولهما ثلاثة من المتابعين. تثائب أحدهم فضربه الذي بجواره على ظهره قائلًا:

- كفى تثاؤب، أو اذهب إلى بيتك لتنام. أم أنّها لن تفتح لك الباب إذا عدت إليها متأخرًا.

لكزه المتثائب بكوعه ورد عليه قائلًا:

- أنا فقط أخشى أن أزعجها. أمّا أنت فتخشى أن تطلب زوجتك منك ما فقدت القدرة على القيام به.

ضحك الجالسون إلا سيّد ومنصور، فلم يكونا منتبهين لما يحدث حولهما من حوارات جانبية. كان كل منهما يحلم باللحظة التي سيقول فيها للآخر:

- تعلم أولا كيف تلعب ثم تعال لتلعب معي

أو أن يقول له:

- اذهب لتلعب مع زوجتك في البيت. واحذر أن تهزمك هي أيضًا. أو أن لا تجد الولد الذي تكسب به.

ابتسم رجل أشعث الشعر، مهمل الشارب واللحية لمنصور ومال عليه قائلا:

- أنت لاعب محترف يا معلم منصور. ستنتهي هذه الجولة بلا شك لصالحك.

ودون أن ينظر إليه منصور، نادي على عامل المقهى، طالبًا له مشروبًا آخر على حساب اللعب.

ينسى منصور أو يتناسى عن عمد أنّ هذا الرجل قد همس بنفس الكلام تقريبا في أذن سيّد من قبل. وطلب له سيّد أيضا مشروبًا على اللعب.

كانت هذه هي الجولة السابعة، فمنذ الساعة العاشرة مساءًا وهما جالسَين أمام الطاولة محاطَين بأشخاص يتغيرون من وقت لآخر إلا الرجل الأشعث الشعر الذي يصحبهما منذ بداية اللعب.

اتفقا عندما بدءا اللعب أن يلعبا مباراة واحدة، لكل واحد منهم أربعة مشروبات بقيمة أربعة جنيهات. وبعد ان اقتربت الساعة من الثانية بعد منتصف الليل كنت قيمة المشروبات قد قفزت لتصل إلى عشرة جنيهات للجولة الواحدة.

كان كل منهم يحسب ما في جيبه من نقود ويدعو الله في سره أن يكون هو الفائز حتى لا يعود إلى بيته خالي الوفاض بل وربما مدينًا أيضًا لعامل المقهى.

فجأة، انقطع التيار الكهربائي. خاف عامل المقهى أن ينصرفا دون أن يكملا اللعب وبالتالي لا يحصل على ثمن المشروبات.

تحرك خلف طاولة المشروبات. أشعل أحد أعواد الثقاب وانحنى يبحث في درج معدني تآكلت جوانبه من الصدء عن كيسٍ به بعض الشموع. أخرج شمعتين وأشعلهما. عاد بهما إلى الطاولة ليضعهما على طاولة اللعب.

طلب من كل من سيّد ومنصور أن يمنحه كل منهما ثمن المشروبات كضمان. صرخ فيه منصور قائلًا:

- أنت تمزح، أليس كذلك؟ هل سبق أن أخرّتا لك نقودًا من قبل؟

يعلم عامل المقهى جيدًا أنّ هذا قد حدث من قبل. بل اضطر في مرة أن يصبر شهورًا عديدة حتى يحصّل ما له من نقود لدى منصور، ولولا تدخل الكثيرين من زبائن المقهى لما حصل على تلك النقود.

اضطر للابتعاد هذه المرة أيضًا، خوفًا من أن تنشب معركة ويضطر معها للانتظار شهورًا أخرى حتى يحصل على نقوده.

كان يدعو بينه وبين نفسه أن يخسر سيّد هذه الليلة. فرغم أنه صديق له، إلا أنه يعلم جيدًا أنه سيدفع له نقوده إما الليلة أو في الغد على أسوء تقدير.

فجأة توقفت سيارة ميكروباص أمام المقهى، نزل منها أحد ضباط الشرطة ومعه ثلاثة من المخبرين. تحرّك الضابط ناحية الطاولة. وقف مخبران أمام الباب والآخر بجوار الميكروباص الذي تململ سائقه من هذه الجولة الإجبارية التي وقعت من نصيبه هذه الليلة دونًا عن الميكروباصات الأخرى التي كانت تمرّ من أمام القسم.

قبل أن يبدأ في سؤال الموجودين عن بطاقاتهم الشخصية، عاد التيار الكهربائي فجأة.

كان صرصورٌ كبيرٌ قد استأنس الهدوء الذي حدث بعد انقطاع التيار فتحرّك مستكشفًا المكان. لم يدرك الصرصور أنّه يقف أمام حذاء الضابط. لم يدرك الفرق بين حذاء النقاش سيّد الذي تعلوه رأسٌ شربت وحدها أكثر من جالون من البوية وحذاء الضابط الذي تعلوه نجوم ذهبية تتلألأ تحت نضارةٍ شمسيةٍ تخفي نظراته المهتّزة عن الآخرين.

نظر أحد الواقفين أمام الضابط إلى الصرصور وهو يصعد على الحذاء. انتبه الضابط لمكان عينيه فنظر هو الآخر. لمح الصرصور وهو

يحاول تسلق الحذاء فهز رجله بعصبية وتراجع إلى الوراء بعيدًا عن الصرصور.

ابتسم عامل المقهى ابتسامة سخرية حاول أن يخفيها. تقدم نحو الصرصور وفي لحظة كان قد دهسه بحذائه ثم توجه للضابط قائلًا:

- تمام سعادتك، قتلته

شعر الضابط بسخرية عامل المقهى التي حاول أن يخفيها. اقترب منه ممسكًا بياقته، ثم دفعه نحو المخبرَين الواقفَين أمام الباب قائلًا:

- خذوا معكم هذا البطل، لنجعله يتعلّم كيف يكون القتل.

الصف الأعوج

توضّأ في منزله، وتحرّك في اتجاه الزاوية الصغيرة القريبة من منزله والتي اعتاد أن يذهب إليها كل جمعة للصلاة. ذهب متأخرًا، كانت الزاوية الصغيرة بالداخل قد امتلأت، فصلّى في الخارج.

خلع حذائه وجلس على الحصر المفروشة على الرصيف. كان الشيخ يخطب خطبة لم يستطع أن يفهم منها إلا أقل القليل. كان الإمام يخطب صارخًا كأنه لا يستطيع أن يوصل رسالته للمصلين إلا بالصراخ.

نظر حوله إلى المصلين. كان منهم الذي أغمض عينيه من الملل أو من عدم إدراكه لما يقوله الإمام. منهم من انطلق بخياله لمنطقة بعيدة ربما فصلته عن الزاوية مئات الكيلومترات. أحدهم يعبث بأطراف الحصيرة البلاستيكية الخضراء وآخر يراوغ نملة وهي تتحرك دون أن تلقي بالا لأصابعه التي تحاول أن توجهها بعيدًا عن قدمه.

لفت نظره السايس الذي يراه كثيرًا في الميدان وهو يتحرك كالساعة يوقف هذه السيارة ويخرج الأخرى. ينحني ويجري ويتمايل ويجلس على الرصيف يشرب سيجارته منتظرًا أحدهم حين يأتي لاصطحاب سيارته.

كان يجلس على مقعد من البلاستيك يستمع إلى خطبة الجمعة ولمحه بعدها وهو يصلي أيضًا على نفس المقعد. بدا للجميع إلا من يعرفه أنّه لا يستطيع الصلاة إلا وهو جالس.

أقيمت الصلاة. سمع الشيخ وهو يقول: "واعلموا، أنّ الله لا ينظر إلى الصف الأعوج". لفتت نظره هذه الكلمة التي يسمعها من الشيخ كل صلاة جمعة.

تعجّب! كيف لا ينظر الله إلى الصف الأعوج. وماذا إذا كان هناك من يقفون باعتدالٍ داخل الصفّ. هل سيتركهم الله ولا ينظر إليهم عقابًا لهم على ما فعله الآخرون. هل يمكن أن يكفّر شخص عن خطيئة ارتكبها غيره.

فاق من تساؤلاته وقد تحرك بصدره إلى الأمام يلقي نظرةً سريعة على الصفّ يتأكّد بها ويؤكّد لنفسه أنّه ليس من الصفّ الأعوج.

قدر فول

دخل إلى غرفة جدته وهي جالسة على مقعدها الخيزران داخل الشرفة المفتوحة النافذة مميلةً رأسها على سور الشرفة الخشبي ومستندةً بيديها على القطعة العاجية التي في طرف عكازها الأبنوس.

وقف بجوارها لكنها لم تشعر به. كانت تمعن النظر إلى عربة الفول التي احتلت الساعات الأولى من الصباح واحتلت معها ناصية الشارع الذي كان يغرق في الهدوء يومًا ما.

قالت له يومًا أنّ جدّه عندما اشترى هذه الفيلّا في ستينات القرن الماضي، كانت تنظر من هذه الشرفة فترى حديقةً ممتدةً نحو شارع صلاح سالم ثم بعد ذلك لا ترى على مد البصر سوى سور قاعدة مطار ألماظة وبعضًا من وحدات الجيش المتناثرة داخل الصحراء الممتدة إلى السويس.

كان بائع الفول يستعد للرحيل ململمًا حاجياته التي وضعها خلفه بجوار سور الفيلّا التي هجرها ساكنوها منذ زمن تاركين فيها أحد البوابين يسكن فيها مع زوجته وأولاده غرفةً صغيرةً مجاورةً للسور.

أخذ بائع الفول يجمع الأطباق الألومنيوم والبلاستيك والأقفاص التي كانت تمتلئ أول الصباح بتشكيلة من الجرجير والفلفل والبصل بنوعيه الأخضر والأصفر وحبّات الطماطم والليمون. والتي انتهى خلال ساعات قليلة غالب ما في هذه الأقفاص مع فراغ قدر الفول.

جمع ما تبقى منها داخل جوال من الليف. ووضع كل هذه الأغراض فوق عربة الفول ثم غطاها بغطاءٍ مزركشٍ من الكتّان.

قام بربطه جيدًا ثم أزاح الحجرين الذَين كان يسند بهما عجلتي العربة. رفعهما ووضعهما فوق الغطاء المزركش من الجانبين. جلس بجوار العربة منتظرًا، ثم أخرج علبة سجائره وأشعل سيجارة وجلس مستندًا إلى السور.

وقف فاروق أمام جدته وهمس لها متبسمًا:

- هل أحضر لك طبقًا من الفول يا جدّتي الحبيبة؟

نظرت إليه الجدة وقد تفاجأت بوقوفه بجوارها. أجابته بابتسامة رقيقة:

- لقد فرغ القدِر يا حفيدي العزيز.
- يمكن أن أذهب للشراء من المطعم في الشارع الرئيسي؟

ابتسمت مرّة أخرى قائلة:

- ليس عن هذا القِدر أتحدث يا عزيزي.

لمح في عينيها هذه الابتسامة المستكينة. نظر هو إلى السماء. وأكملت هي تطلعها لبائع الفول الذي فرغ قدره ويستعد للرحيل.

مظروف قديم جدًا

فكّر فاروق في استخدام البخار لإذابة صمغ المظروف، لكنه سخر من نفسه حين تذكّر أن هذا المظروف قد مضى عليه الآن أكثر من خمسين سنة. أغلب الظن أنّ المظاريف في هذا الوقت كانت تلصق بمادة أخرى غير الصمغ.

تذكّر أنه شاهد في أحد أفلام الأبيض والأسود بطلة الفيلم وهي تمرر مظروفًا بجوار مصباح مضاء ثم قامت بفتح المظروف بأظافرها. على ما يذكر أنها كانت مديحة يسري.

تحرّك ناحية السرير. أضاء مصباح القراءة الذي بجواره. قام برفع الغطاء المخملي الذي يغطي المصباح، وانتظر حتى ارتفعت حرارته. مرّر فتحة المظروف ملامسة لزجاج المصباح وما إن اطمئن لذوبان المادة اللاصقة حتى بدأ بمنتهى الحرص في فتح المظروف بأطراف أصابعه.

أخرج الخطاب ثم قام ببسطه أمامه كي يبدأ القراءة. شعر بخيبة أمل حين رأى الحروف الغريبة التي كُتِب بها الخطاب. دقّق في الخطاب أكثر. تذكّر أنه رأى هذه الحروف في مكانٍ ما من قبل. نعم، لقد رآها على لافتاتٍ كثيرةٍ في الغردقة وفي شرم الشيخ أيضًا. كانت بعض اللافتات هناك تكتب باللغات العربيّة والإنجليزيّة والروسيّة.

تمنّى لو أنه استجاب منذ عدة سنوات لصديقٍ له يعمل الآن في مجال السياحة عندما اقترح عليه أن ينضمّ معه للمركز الثقافي الروسيّ لتعلم اللغة الروسيّة. رفض الاقتراح حينها لأنه استثقل فكرة الذهاب ثلاث مرات أسبوعيًا من مصر الجديدة إلى الدقي وبالعكس.

فكّر في الاتصال بصديقه، لكنه عدل عن الفكرة فهو لا يريد لأي كان أن يشاركه لذة الانفراد بقراءة هذه الخطابات التي عثر عليها مغلقة ومرتبة وحولها حبل من الكتان في أحد أدراج مكتب جده الذي رحل منذ أكثر من سنة. كان أبوه قد طلب منه البحث في هذه الغرفة -غرفة مكتب جده- عن أحد العقود التي تخصّ جده.

تأمّل السطر الأول من الخطاب، كان يبدأ بكلمتين Дорогой фарук. خمّن أنّ الكلمة الأولى ربّما تعني عزيزي أو صديقي أو أخي أو أي من الكلمات التي يبدأ بها كاتب الخطابات عادة. أما الكلمة الثانية فبالتأكيد هي اسم الشخص الموجه إليه الخطاب. وبم أن هذا الخطاب يخصّ جده، فهذه الكلمة ولا شك تعني فاروق.

تابع تأمل الحروف، الحرف الأولf ، إنه يشبه الرمز الرياضيّ فاي، وفاي تبدأ بـ F إذن فهذه هي F فاروق بالإنجليزية. لم يكن يعلم أن فاي هذه ترجع إلى اللغة اليونانية وتكتب بالإنجليزية phi وليست fi .

لم يزعجه من باقي الحروف سوى حرف الـ p ، ربما أخطأ كاتب الخطاب في كتابة الـ r وكتب بدلًا منها حرف الـ p . شعر أنه لن يصل لأي نتيجة إذا استمر في محاولة فكّ طلاسم الحروف بهذه الطريقة المضحكة .

قام بفتح اللاب توب الموجود على طرف المكتب. فتح متصفح الإنترنيت ثم قام بالبحث عن كيفية إضافة اللغة الروسية لنظام الويندوز. تتبع

الخطوات التي ظهرت أمامه، وفي أقل من دقيقتين أصبح قادرًا على استخدام اللغة الروسية على اللاب توب.

فتح برنامج معالج الكلمات وبدأ يتدرّب على معرفة الحروف. ضغط على حرف الـ f فظهر له على الشاشة صورة الحرف ф .

ضغط على حرف الـ r فظهر له حرف الـ p . ضحك من اتهامه لكاتب الخطاب بالخطأ في كتابة حرف الـ r .

استمر في المحاولات حتى أمكنه بعد وقت قصير أن يتعلّم كيف يكتب الحروف الروسيّة.

بدأ في نقل كلمات الخطاب كلمة كلمة. أخذ وقتًا طويلًا جدًّا في البداية، لكنه مع الوقت كان قد استطاع أن يحفظ معظم الحروف وموقعها على لوحة المفاتيح.

انتهى من كتابة الخطاب وحان وقت الترجمة. قام بنسخ ما كتبه إلى مترجم جوجل. ظهرت له الترجمة بالعربية. قام بنسخها مرةً أخرى إلى ملف جديد في معالج الكلمات. أخذ في تعديل أخطاء الترجمة مستخدمًا أحد القواميس الالكترونية ثم بدأ في قراءة الخطاب الأول.

عزيزي فاروق

مر عام منذ التقينا أول مرة، هل تتذكر؟

أنا أتذكر. ٩ يوليو ١٩٥٧. كنت أتجول في خان الخليلي أمام الدكاكين والبازارات وأنا منبهرة بالمكان وبهذه المباني الأثرية وهذه الحارات والأزقة الضيقة. ولغبائي كنت أرتدي حذاءً بكعب عال رفيع. لم أدرك مدى

غبائي إلا عندما علق كعب حذائي الأيسر بين فواصل البلاطات البازلتية التي رصف بها الخان.

لمحتَني وأنت جالس على مقعد خشبي أمام أحد البازارات. رأيتني وأنا أحاول تخليص قدمي العالقة في حفرة ضيقة بين بلاطتين من البلاط البازلتي. تقدمت مني بسرعة. لم تنطق بكلمة، كل ما فعلته أن انحنيت بجواري. ضغطت على مؤخرة الحذاء بإحدى يديك وباليد الأخرى أمسكت كاحلي بكل رقة ثم رفعت قدمي لتخرجها من الحذاء.

اسندتني إلى كتفك وتحركت بي وأنا أحجل على قدم واحدة نحو المقعد الذي كنت جالسا عليه. أجلستني وحين هممت بوضع طرف قدمي التي بلا حذاء على الأرض، أمسكت بها ورفعتها قليلا مشيرا لي بكف يدك أن أتركها هكذا. رفعت يدك مشكلًا رمزًا بإصبعيك السبابة والإبهام طالبًا مني الانتظار قليلا.

دخلتَ إلى البازار ثم عدت إليّ وبين يديك صندوق خشبي قمت بوضعه أمامي واضعا قدمي العارية عليه. حدث كل هذا دون أن تنطق بكلمة واحدة. تحركت نحو الحذاء العالق بين البلاطات وقمت بتخليصه من بينها. وبإصبعين سحبت القطعة المعدنية التي في أسفل الكعب والتي انفصلت عن باقي الكعب.

ناديت على أحدهم من داخل البازار. تحدثت معه وأعطيته الحذاء والقطعة المكسورة. لم أفهم ما قلت، لكن الصبي عدا مسرعا ثم دلف إلى أحد الأزقة الجانبية. تقدمت مني قائلا بإنجليزية سليمة: "دقائق ويتم إصلاح الحذاء. الجو هنا حار، سأحضر لك مشروبا باردا".

قبل أن أبدي رفضي أو قبولي تركتني ودخلت إلى البازار. دقائق وجاءني أحد الصبيان بكوب من شراب أحمر اللون. أخبرتني بعد ذلك أن اسمه "إنناب"، لا أذكر جيدا نطق الكلمة.

وضع الصبي الكوب بجوار قدمي على الصندوق وانصرف. خرجتَ أنت بعدها وتقدمت مني قائلا: "اعتذر، مضطر أن أتركك الآن. لا تقلقي، سيأتي لك الولد بالحذاء خلال دقائق. ووالدي في الداخل إن حدث ما يعكر صفوك". أومأت برأسي وقبل أن أشكرك تركتني وانصرفت.

لا زالت كل تفاصيل اللقاء محفورة في ذاكرتي، ظللت أستعيدها حتى بعد أن مرت سنة كاملة على لقاءنا الأول واجتاحتني رغبة قوية أن أحكيها لك.

كاترينا

أعاد الخطاب إلى المظروف وابتسم وهو يتخيّل صورة جده الذي لم يره إلا وشعره قد انحسر إلى الخلف وقد تحول كله إلى لون لا تستطيع تحديد إن كان رماديًا أم أبيض. تخيّله باللونين الأبيض والأسود مثل الأفلام القديمة وهو ينحني على قدم الفتاة الأجنبية في رومانسيةٍ ورقةٍ انحسرت هي الأخرى مع انحسار شعره الأسود إلى الخلف وتحوله إلى لون لا تستطيع تحديده.

خجل

نظر يسري نحو حازم زميله في الفصل الذي اعتاد أن يغتصب منه طعامه كل يوم. أمسك حازم بالساندويتشات وبدأ في التهامها بهدوء. وقف يسري ساكنًا لا يبدي اعتراض. لم يحاول حتى أن يمنعه ببعض من الكلمات.

تذكّر المرة الوحيدة التي واتته فيها الشجاعة، فاعترض على هذا الاغتصاب. تلقى وقتها لكمةً في صدره وبعض ركلاتٍ على مؤخرته استكان لها أيضًا بلا أدنى مقاومة.

قرّر بعدها أن يستخدم المصطلح الشهير للبطل اليهودي شمشون "عليّ وعلى أعدائي"، لكن بطريقته الخاصة.

كان يلقي بالطعام في صفيحة القمامة قبل دخوله إلى المدرسة فلا هو يتألم عندما يغتصبها حازم ولا يمنحه أيضًا فرصة التهامها هانئًا ملتهمًا معها كرامته وربما رجولته التي حولته -منذ وقت بعيد- من يسري إلى "يويو" بين أقرانه في الفصل.

قرّر يسري بعدها أن ينضمّ لتدريبات الكاراتيه في النادي. شعر أنه بتعلمه فنون القتال سيتمكن من الثأر لنفسه ولطعامه المغتصب وكرامته المهانة وأن يتخلص تمامًا من لفظ الـ "يويو" الذي يزعجه ويشعره بفقدانه لرجولته.

طلب منه مدرب الكاراتيه ذات مرة القيام بإحدى الحركات التي دربهم عليها في التمرين السابق. وقف محركًا يديه بحركاتٍ هي أقرب إلى الرقص منها إلى "كاتات" الكاراتيه.

توقف حين سمع ضحكات زملاءه في الفريق والتي تلتها سخرية المدرب منه حيث أمره بالعودة إلى الصف قائلًا:

- نحن هنا في تمرين كاراتيه يا يسري. فرقة الرقص الإيقاعي ستجدها في الصالة الداخلية.

آلمته كلمة المدرب إلا أنه تجاهلها مؤقتًا عازمًا أن يكمل حتى ينتقم من حازم، مغتصب الطعام.

انتهى من تدريبه ذلك اليوم وذهب إلى الاستحمام في حمّام النادي على غير عادته.

كان لديه في هذا اليوم درسٌ خارجي بعد التمرين. وأدرك أنّ الوقت لن يسعفه للذهاب للبيت للاستحمام.

وقف مسمرًا داخل الحمام وقد فوجئ بزملائه يتحركون هنا وهناك وهم عرايا تمامًا. وقف أحدهم يتفاخر بعضوه أمام الآخرين فانتقلت العدوى للآخرين فبدأوا في تقليده.

أخذ ينقل عينه بعيدًا عن الأعضاء المرتخية أمامه. خلع ملابسه وأبقى على سرواله الداخلي. نظر إليه زملاؤه مستنكرين. شعر بالحرج، فمدّ يده يخلعه حتى أصبح هو الآخر عاريًا تمامًا مثلهم.

هذه أول مرةٍ يتعرى أمام آخرين. أوقف أمه عن مساعدته على الاستحمام قبل أن ينهي المرحلة الابتدائية. علت وجهة حمرة خجلٍ شديدةٍ. تحرّك مرتبكًا تحت الماء علّه يستطيع أن يطفئ به خجله.

دخل الجميع تحت الماء. أحسّ بيدٍ تقترب منه ويمررها صاحبها على مؤخرته. استدار بسرعة، كان خلفه زميل له في الفريق أكبر سنًا. حملق فيه بنظراتٍ حادة. نظر ياسر إلى ما بين ساقيه فتحرك بسرعة إلى الخلف. خرج من الحمّام مسرعًا دون أن يكمل استحمامه.

لم يعد إلى التدريب مرة أخرى. قرّر أن يترك حازم يغتصب طعامه بدلا من أن يقف ساكنًا لا يبدي اعتراض أمام أشياء آخرى. قرر أن يصبح يويو لبعض الوقت وليس لكل الوقت.

نوما هانئا

أخبرته موظفة الاستقبال أنه سيقيم في المبنى القديم للفندق، على مشارف الغابة السوداء. طلبت مه أن يخرج من الباب الخلفي للمبنى الجديد. ثم يقطع الحديقة حتى الجسر الواقع فوق النهر.

اكتشف فيما بعد أن هذا النهر لم يكن سوى خط رفيع لا يزيد عرضه عن الترعة الصغيرة التي تمر بجوار أرض جده في بلدتهم. فكّر أن الألمان يحبون المبالغة، لكنه عندما نظر إلى الخريطة التي يحملها معه فيما بعد، أدرك أنه بالفعل نهرًا وأنّه يمتدّ -أيضا- لمئات الكيلومترات.

أخبرته أنه بعد أن يعبر النهر سيرى على يمينه المبنى القديم للفندق. بضع خطوات ثم يصل إلى بابه الرئيسي. قالت له وهو يغادر نحو المبنى القديم:

- تذكّر جيدا أن تغلق نافذة الشرفة قبل دخولك إلى الفراش.

تحرّك في اتجاه المبنى القديم. لم يتوقع هذا الصمت من حوله. كانت الساعة بالفعل قد تجاوزت الثانية عشر. لكن لم يعرف هذا الهدوء الرهيب من قبل، ليس فقط في القاهرة بل وأيضا في قريته الريفية حين يذهب لزيارة عائلته.

عبر النهر ثم اتجه يمينا. صعد الدرجات الخشبية ومدّ يده نحو مقبض الباب الخشبي محاولًا فتحه. تذكّر أن فتاة الاستقبال أخبرته أن يستخدم مفتاح الغرفة لفتح الباب.

دلف إلى الداخل. حاول أن يستشفّ أي أثرٍ لحركةٍ أو لنَفَسٍ آخر غير نفسه في الفندق. لكنه شعر أنه ولابد أن يكون الوحيد في هذا المبنى.

بحث عن رقم الغرفة التي أخبرته الفتاة أنها في الطابق الأرضي. كانت الغرفة في آخر ممرٍ ضيّقٍ عليه ان يعبر بابًا آخر زجاجيّ حتى يصل إليه.

دخل إلى الحجرة وأغلق بابها خلفه. وضع الحقيبة على يمين الباب. فتحها. أخرج منها ملابس النوم. وتركها على الأرض. استبدل ملابسه. وأخرج علبة السجائر والولاعة من جيب الجاكيت وقبل أن يشعل السيجارة، تذكّر أن التدخين ممنوع داخل الغرف.

توجه ناحية نافذة الشرفة. فتحها. دخل إلى الشرفة الصغيرة التي احتل مقعد صغير وطاولة أغلب مساحتها. جلس على المقعد. شعر ببرودة تسري في فخذيه فانتفض واقفا وقرر أن يدخن سيجارته على هذا الوضع. اقترب من سور الشرفة وأشعل السيجارة.

نظر أمامه فلمح غابة من الأشجار العالية والتي لا تبتعد عن الشرفة سوى بضعة أمتار. تساءل عن سبب إصرار الفتاة على أن يغلق النافذة قبل أن يخلد إلى الفراش.

قالتها مرتين، مرة وهي تعطيه المفتاح ومرة وهو يتحرك نحو المبنى القديم.

نظر أمامه نحو الغابة المظلمة. تساءل، ترى هل بها حيوانات مفترسة؟! تجاهل هذه الفكرة تمامًا. فلا يعقل أن يكون بها حيوانات

مفترسة ويُبنى هذا الفندق بدون أي أسوار على مشارفها. ربما ثعابين؟! رغم أنه استبعد أيضا هذه الفكرة إلا أنها أثارت خوفه. تلفت حوله ينظر على جوانب الشرفة. رفع رأسه إلى أعلى وتحت قدميه. حرك قدميه، عاد إلى الوراء والصق ظهره إلى النافذة. أطفأ السيجارة بسرعة وانسحب إلى الداخل وأغلق النافذة.

سخر من نفسه بعدها. لم يكمل سيجارته لكنه فقد الرغبة في التدخين. قرر أن يأخذ حمامًا ويدخل إلى الفراش. لفت نظره ضوء الممر وهو ينساب أسفل الباب. كان ضوء الردهة يعمل آليا مستجيبًا لأي حركة في الممر.

لابد أن هناك من حضر الآن أو خرج من غرفته. إذن فليس هو الوحيد في ذلك الفندق القديم. لمح نقطتين مظلمتين أمام الباب. نظر من العين السحرية. لمح أحدهم واقفا يحاول أن يفتح باب غرفته. فكّر أن يفتح الباب، لكنه تردد. لمح الرجل وهو ينظر على الباب ثم تحرّك في اتجاه الباب المقابل. وضع المفتاح في الباب. دخل إلى الغرفة وأغلق الباب. أدرك أن الرجل قد أخطأ الغرفة.

لم ينم نومًا عميقًا هذه الليلة رغم رحلته الطويلة من القاهرة إلى فرانكفورت تلتها ثلاث ساعات بالقطار إلى أوفنبرج وساعة أخرى بالقطار إلى هنا حيث الغابة السوداء.

في الصباح تحرك في اتجاه الفندق الجديد ليتناول الإفطار.

كانت نفس فتاة الاستقبال الموجودة ليلًا تقف في مكانها كأنها لم تغادرها منذ ليلة أمس.

اقترب منها مبتسمًا. حيّاها ثم سألها:

- هل يمكن أن أسأل سؤالا لو تكرمتِ
- تفضل
- ما سر إصرارك ليلة أمس على أن أغلق النافذة؟

ابتسمت الفتاة:

- هل أزعجك إصراري. اعتذر بشدة. لم أكن أقصد. كلّ ما في الأمر أن حشرات الغابة الطائرة يمكنها أن تدخل إلى الغرفة ليلا، فتزعجك. فأردت -فقط- الاطمئنان على أنّك سوف تنام نوما هانئا.

القطار

- ركوب القطار يلزمه شراء تذكرة

هكذا قال أبي وهو يعطيني النقود اللازمة للسفر إلى الإسكندرية. فكثيرة هي المرات التي رآني فيها وأنا أقفز لأتعلق بباب أحد القطارات وهو يهدئ من سرعته قبل عبوره المزلقان، وكثيرًا أيضا ما رآني بعد وقت قصير وأنا أقفز من القطار القادم من الجهة الأخرى قبل أن يبدأ في الإسراع بعد مغادرة المزلقان.

كان يدرك اللعبة جيدًا، لكنه لم يبح قط بما يعرف. كانت هذه دومًا هي طريقته في التعامل مع الأشياء، يدركها ولا يتدخل فيها، حتى جملته تلك التي تحدث بها إليّ، لم تكن إلا مجرد إثبات حالة فهو لم يقل لي مثلا:

- يجب أن تشتري تذكرة

ولم يقل لي أيضًا

- لن تستطيع أن تمارس هوايتك في تسلق القطارات هذه المرة.

كان هذا هو أسلوبه في الحياة. حتى حينما اختار له أبوه هذه الشقة أمام مزلقان القطار مباشرة في هذا الحي الشعبي القديم، لم يعترض، ولم يفكر حتى في إبداء وجهة نظره رغم علمه أنه سينزعج من مرور القطارات ليلًا ونهارًا، ورغم علمه أن صوت صفير القطار سيقلق منامه وهو الذي اعتاد النوم في جو الأرياف الهادئ.

لم يعترض ولم يحاول أن يعترض، فقط أقرّ بحقيقة أنه لابد أن يتأقلم على النوم في مثل هذا الجو. بل إنه اعتاد مع مرور الوقت على النوم على أصوات القطارات وصرير فرامل عجلاتها الحديدية على القضبان.

لا أتذكر أن أبي اعترض على شيء واحد في حياته، حتى عمله الذي سعى إليه جدي لأجله كموظف في الشهر العقاري وحتى أمي -ابنة عمته- اليتيمة، والتي تخلى بها عن حلمه في الزواج ممّن يحب.

كان سلبيًا حتى النخاع. لا يرى في الدنيا ما يدعو لأن يتخذ موقفًا إيجابيًا واحدًا.

حتى سفري هذا، كان يفترض أن يكون هو المسافر وليس أنا. لكنه نزل على رغبة أمي في أن أسافر لأنهي هذه المهمة وأقضي يومًا في الإسكندرية، مستمتعا بشتاءها الدافئ البارد في نفس الوقت. قالت له أمي:

- أنت لن تتحمل برودة الجو في الإسكندرية. دع إبراهيم يسافر مكانك

إبراهيم هو أنا. أسمتني أمي على اسم أبيها. هو أيضا لم يعترض وقتها، رغم علمي عندما كبرت -من أمي- أنه كان يرغب في تسميتي بسليمان على اسم أبيه. ذكرت أمي انه اكتفى بتعليق خفيف كأنه يداعبها:

- إبراهيم أو سليمان، كلاهما نبّي. بل إن إبراهيم هو أبو الأنبياء.

ضحك بعدها ضحكة المهزوم الذي لم تزعجه أبدًا مرارة الهزيمة.

مانجو

تذكّر طارق مرته الأولى حين استعار أول مجلةٍ جنسيةٍ من أحد أصدقاءه، وكيف أخفاها بين طيات ملابسه.

مر يومها بعائلته وهم جالسين يشاهدون مسلسل الساعة السابعة، شعر حينها أن الجميع يعلمون أنه يخفي شيئًا ما. بل وربما يعلمون أنّ هذا الشئ نصفه تحت بنطاله ونصفه الآخر تحت القميص. ألقى عليهم -محاولا أن لا يبدو مرتبكًا- تحية المساء.

أسرع إلى حجرته وأغلق الباب وراءه. بحث عن مكان يخفي فيه المجلة بسرعة. خبأها تحت مرتبة السرير مباشرة فوق إحدى العوارض الخشبية تحت المرتبة.

خرج وهو يتصبب عرقًا، مسحه بطرف قميصه وجلس يتابع معهم المسلسل. كان يسمع التعليقات على المسلسل ويحللّها كأنها إسقاطات على ما فعل.

سألته أمه عن سبب تأخيره، أجابها أنه ذهب مع أصدقاءه لشرب العصير. انتهى المسلسل، قامت أمه لتجهيز العشاء. جلس مع جده وجدته.

لم يعلم السبب الذي دفع جده لأن يحكي هذه الحكاية الطريفة عن السرقة، لكنه أنصت باهتمام لجده وهو يحكي.

قال جده :

- كان هناك رجل فقير لم يجد عملًا في قريته فقرر أن يمضي في البلاد بحثًا عن الرزق. ظل أياما يسير بلا أمل حتى أصابه الجوع. لم يكن معه ما يشتري به الطعام.

مر في طريقه بإحد البساتين فلمحت عيناه أشجار مانجو مثمرة وقد سقطت بعض ثمارها على الأرض. أغراه جوعه الشديد أن يمد يده ويلتقط إحدى الثمار. تلفت حوله خائفًا، ثم تقدم مترددًا والتقط ثمرة واحدة من تحت إحدى الأشجار. أخفاها بين ملابسه مبتعدا عن البستان ليأكلها حيث لا يراه أحد.

تندّى جبين طارق بالعرق حين سمع هذه الجملة. فسرها هو كأنّ جده يقول:

- والتقط مجلة جنسية من تحت كومة الكتب. أخفاها بين ملابسه مبتعدا عن الجالسين ليتصفحها حيث لا يراه أحد.

تمنى لو أن شيئا يحدث يوقف جده عن سرد بقية الحكاية. توقف الجد ومد يده نحو زجاجة الماء. قام فاروق من مكانه وصب لجده بعضا من الماء في الكوب الزجاجي. قدم الكوب لجده الذي نظر إليه قائلا:

- لماذا ترتعش يداك هكذا؟
- أنا؟ أبدا. إنها لا ترتعش

لم يستطع فاروق أن يجد تفسيرا لسؤال جده. هل لاحظ عليه شيئا ما؟!. أكمل جده الحكاية:

- لمحه صاحب البستان من بعيد وهو يلتقط الثمرة. نادى على العمال الذين يعتنون بالبستان، وانطلقوا جميعًا خلفه. أمسكوا

به وطلب منهم صاحب البستان أن يصطحبوه إلى الشرطة. توسل الرجل إلى صاحب البستان أن يتركه.

أخبره أنه لولا الجوع ما فكر في سرقة ثمرة المانجو. فكر صاحب البستان أن يتسلى قليلا بالرجل فقال له:

- سأخيرك بين أمرين، إما أن آخذك إلى الشرطة أو أن تأكل ثمرة المانجو هذه بقشرتها وبذرتها.

نظر إليه الرجل بدهشة ثم سأله متعجبًا:

- بقشرتها وبذرتها؟!

أومأ صاحب البستان مؤكدًا على كلامه. قال له الرجل:

- لكن البذرة ستقف في حلقي.

أجابه صاحب البستان:

- ربما، وربما لا. كل ما عليك أن تختار.

فكر الرجل قليلا وبطنه تصرخ من الجوع، ثم أجابه قائلا :

- ليكن. سآكلها بقشرتها وبذرتها. دعني فقط أسد جوعي بأكل لحم الثمرة. وعندها أتشجع لأكل القشرة والبذرة.

قام الرجل بتقشير الثمرة، وبدأ في أكلها. مصمص القشرة والبذرة ثم أمسك بهما بين يديه وألقى بهما وراء ظهره. التفت بعدها لصاحب البستان قائلًا:

- يمكنك الآن اصطحابي للشرطة. فأنا الآن لديّ بعض الطاقة لتحمل الجلد.

توقف فاروق في الحكاية عند كلمة الرجل "لولا الجوع ما فكرت في السرقة".

هل كان جائعا حين استعار المجلة من صديقه. وأي جوع هو ذلك الجوع. هل هو الفضول، الرغبة، العطش. لم يجد إجابة لهذا السؤال.

السيل

قرفص جدي مسندًا ظهره إلى آخر بيوت القرية يتأمل التلال الصخرية الواقعة خلف البيوت. تأخذ القرية مكانها مباشرة بعد نهاية الأرض الزراعية التي تطل على الترعة الكبيرة الموازية للنيل وتنتهي غربا على مشارف الصحراء الممتدة نحو جبال البحر الأحمر.

نظر إلى الأرض وهي تتدرج من رماديةٍ ترابيةٍ إلى صفراء رمليةٍ كلما ابتعدت نحو الصحراء.

قام من مكانه ممسكًا بعصاه من المنتصف. تحرك بثبات نحو أحد التلال. تبعته، فأشار لي أن أعود. أكمل طريقه وصعد إلى التل الصخريّ. لمحته وهو يتحرك فوقه متفحصًا تربته بعصاه.

لم يمر شهر إلا وكان لنا بيت فوق هذا التل. انتقلت العائلة مخلفة وراءها القرية ببيوتها ترابية اللون المبنية من الطوب اللبني.

أصبحنا بعد انتقالنا نراها من أعلى ويرفع الناس رؤوسهم عجبًا من هذا البيت الرابض فوق التل.

أسبوع آخر وكانت طلمبة الماء قد استقرت أسفل التل تسحب ماءها من باطن الأرض. نحمله في جرار أطفالًا ونساءًا إلى أعلى. بدأت العقارب والحيات في الرحيل إلى جهة الشرق نحو الصحراء. أدركت أنّ هذه الأرض لم تعد ملكًا لها منذ ذلك اليوم وأن هناك خطر عليها من وجودها بين البشر.

دخل الشتاء سريعًا على غير عادته. مختلفًا على غير عادته أيضًا.

استيقظت القرية ذات مساء على السيول تجرف في طريقها ما تجد. سقط الكثير من جدران البيوت. وانهارت بعض من الأسقف المصنوعة من الخوص ومن سعف النخل. دخل الماء إلى البيوت.

تذكر كبار السن أيام الفيضان. صعد البعض إلى الأسطح التي اعتقدوا أنها ستتحمل. حمل الرجال والنساء الأطفال وانطلقوا بهم بعيدًا عن مجرى السيول.

وقفنا ننظر إلى القرية من فوق التل. وأسرع أبي وأعمامي لنجدة أهل القرية. وقف جدي يرتكز على عصاه ثم قال بحزن شديد:

- اعتقدوا أنني مجنون حين أخبرتهم أن السيل قادم. وأن عليهم أن يصعدوا لأعلى.

تنهّد بعدها قائلًا:

- حمقى. لم يعلموا أنني أشم رائحة السيول.

عروسة قطنية

بعد أن انتقلنا للبيت أعلى التل، بحثت أختي عن عروستها القطنية التي صنعتها لها أمي فلم تجدها. اعتقدت أننا ربما نسيناها في بيتنا القديم والذي أصبح مهجورًا وأتى السيل على أجزاء منه فهدّمه.

نزلتْ من أعلى التل في المساء في اتجاه البيت القديم. لم يكن هناك شبح ولا صوت لأي من أهل القرية. كان البرد والشتاء وصراعهم مع إصلاح ما أفسدته السيول قد أثقلوا رؤوسهم فخلدوا جميعا إلى النوم.

تحركتْ في الظلام نحو البيت. لم تكن الكهرباء قد دخلت إلى القرية بعد، كان السد العالي يعطي خيره للمدن الكبيرة أولًا قبل أن يفكّر في أهالي الصعيد.

وقفتْ أمام البيت الطيني الذي أصبح بلا باب بعد أن نزع جدي بابه ليستخدمه كبابٍ داخلي في البيت الجديد. تحرّكتْ إلى الداخل. لمحت أوزتين جميلتين لهما ريش ناصع البياض تتحركان حول نفسيهما في منتصف البيت.

نظرتْ إلى الداخل دون أن تتحرك فلمحت عروستها القطنية جالسة داخل كوّة صغيرة على الجدار الداخلي كانت أمي تستخدمها لتضع عليها مصباح الكيروسين. تحركت بهدوء نحو الإوزتين اللتين تحركتا ببطء أمامها.

توقفت أمام الكوّة. وإذا بيد تمسك بكتفها من الخلف توقفها عن التقدم. فزعتْ. نظرت خلفها فإذا به جدّي. مد يده نحو الكوّة وتناول العروسة القطنية وقدمها إليها.

طلب منها بصوت خافت أن ترجع إلى بيت التل. سألته بصوت خافت كأنها تخشى أن يسمعها أحد:

- ألن ترجع معي؟ أنا خائفة

ابتسم لها وهو يربت بيده على خدها قائلا:

- لدي أمر يجب أن أفعله هنا. اذهبي أنت ولا تخافي.

خرجت من البيت وقبل أن تخرج التفتت لجدها وقد اتكأ على عصاه. لم تره من قبل وهو يتكئ على عصاه. كان يحمل العصا معه فقط لإخافة الكلاب. بدا لها وقد كبر في السن فجأة وانحنى ظهره.

تحركت نحو التل. لمحت في السماء البعيدة شهابين يحترقان. ولما احترقا ظهرت مكانهما نجمة تتلألأ بوضوح.

صعدت التل. وجدت جدّها جالسًا أمام الباب. تعجبت كيف وصل قبلها إلى البيت ولم تره. توقفت أمامه، سألها:

- أين كنت؟

أجابته:

- أنت تعرف يا جدي. ألم تعطني العروسة وأخبرتني أن أعود إلى البيت.

سألها

- عروسة، أية عروسة

- هذه

نظرت إلي يديها المضمومة إلى صدرها على العروسة فلم تجدها. نظر إليها جدي متعجبا ثم قال:

- لقد وجدت أمك العروسة منذ قليل ووضعتها جوارك على الفراش

تحركت إلى الداخل. حانت منها التفاتة إلى جدها وقد استقام ظهره مرة أخرى وكانت العصا ملقاة بجانبه. فالكلاب المحيطة بالبيت هي كلاب البيت وليست كلابًا غريبة.

المولد

حممته أمه، وألبسته جلبابًا أبيض وانطلقت به إلى المولد. دخلت به إلى المقام. مسحت يدها على الأعمدة الحديدية للمقام وهي تتمتم بكلمات لا يعرفها ثم مسحت صدره بيدها. كررت الأمر مرات ومرات وهو لا يهتم بما تفعل.

كان ينظر إلى الخارج في اتجاه بائع حلوى وبائع آخر يبيع مراوح ورقية ذات ألوان زاهية ومختلفة.

خرجت به أمه من المقام. جذبها من جلبابها الأسود نحو بائع المراوح الورقية، طالبًا منها أن تشتري له مروحة. مدت يدها داخل فتحة صدرها المكتنز وأخرجت من بين ثديها محفظة صغيرة زرقاء. فتحتها وأخرجت منها عملة فضية أعطتها للبائع. مدت يدها وانتقت بنفسها إحدى المراوح.

عاد سعيدًا إلى المنزل. كان يسرع في الطريق وهو يجذب أمه من الجلباب ممسكا بالعصا الخشبية للمروحة رافعًا إياها أمامه سعيدًا بها وهو تدور عند اصطدامها بالهواء.

بعد أيام وبعد أن انتهى المولد، وبينما كان يلعب لعبة "عسكر وحرامية" مع أصدقاءه قريبا من المقام. ذهب ليختبئ وراء حاجز من الطوب خلف المقام.

رفع رأسه إلى نافذة المقام الخشبية وهو يفكر أن باستطاعته أن يرى هذا الولي المقيم دائمًا وراء هذه الأعمدة المعدنية. قال له أحد رفقائه ذات مرة:

- إن الولي يخرج من مقامه آخر الليل بعد أن يسمع طلبات الذين جاءوا لزيارته. ويمر عليهم واحد واحد، فيلبي لهم طلباتهم

ابتسم صديق آخر قائلًا:

- فعلا، أنا رأيته ذات ليلة عند جارتنا "شوقية". تعلمون أنها لم تكن تنجب. كان يرتدي جلبابًا أبيض. لمحتها وهي تقف خلف الباب ترتدي ملابس تشبه ملابس الراقصات. دخل وأغلق الباب وراءه. لم تمر شهور إلا وكانت قد حملت.

سأل صديقه مستفسرًا:

- وكيف حدث هذا؟ هل أعطاها دواءً للحمل؟

ضحك صديق أكبر منهم سنًا قائلًا:

- أنتم لا زلتم أطفال. لقد نام معها يا حمقى.

لم يفهم حينها معنى قوله "نام معها" تلك. لكن في لقاء منفرد مع هذا الصديق الأكبر سنًا، شرح له بالتفصيل ما يحدث بين الرجل والمرأة.

سمع صوتًا صادرًا من داخل المقام. اختبأ خائفًا. اعتقد أن الولي سيخرج الآن من مخبأه وسيذهب ليلبي طلبات المريدين.

رفع رأسه بحذر حتى يراه. فوجئ برجل وامرأة يقفان خلف الأعمدة الحديدية. لم ير هذه المرأة من قبل. لكنه يعرف الرجل فهو حارس المقام والمقيم دائمًا فيه

لفت نظره الرجل وهو ممسك بجلبابه من منتصفه ويتحرك متوترا محركًا الجلباب بعصبية. سمع المرأة تقول له:

- اعطني نقودي أولا قبل أن نبدأ.

لمح الرجل وهو يتحرك في اتجاه صندوق النذور الخشبي ذي الكسوة الخضراء وهو ما زال ممسكا بجلبابه. أخرج من جيبه سلسلة مفاتيح وبأحدها فتح الصندوق. مد يده وأخرج منه بعضًا من النقود وأعطاها للمرأة قائلًا:

- ها هي النقود، هيا اخلعي ملابسك. أنا متعجّل

لطمت المرأة صدرها ثم قالت:

- هل سنفعلها هنا. في المقام. وفي حضرة سيدنا الولي

ضحك الرجل قائلًا وهو يدفعها بعصبية على سجاد المقام الأخضر:

- في حضرة سيدنا الولي!؟ الولي نفسه كان يفعلها هنا، وفي نفس المكان قبل أن يفرش هذا المقام بالسجاد الأخضر.

سرقة

- سأنتظرك هنا
- أنا خائفة
- خائفة!؟ وهل هي أول مرة؟
- لكنها خالتي
- والأخيرة كانت عمتك
- لم أكن أحبها
- كنت تكرهين عمتك؟
- كانت تغار من أمي
- يمكنك التظاهر أيضا أنك لا تحبين خالتك
- لكنه طيبة
- لا أحد طيب في هذه الدنيا
- ولا أنا
- ولا أنا، أنا فقط أحبك
- وأنا أحب خالتي
- أخرجي حبها من قلبك لبعض الوقت
- سأحاول
- بل يجب أن تفعلي

- لماذا يجب أن أفعل؟
- لأن الإنسان لا يستطيع أن يؤذي من يحب.
- من قال هذا؟ أحيانا يؤذي الإنسان من يحب أكثر ممن يكره

نظر إليها مستفسرًا، ابتسمت ابتسامة مريرة ولم تجبه. تركته لتدخل إلى بيت خالتها.

بعد أن تم القبض عليها في مرة لاحقة بتهمة السرقة وسألوها أين خبأت المجوهرات. أجابتهم بمنتهى الهدوء:

- إن الإنسان لا يستطيع أن يؤذي من يحب.

الحية والثعبان

زحفت الحية بهدوء نحو سرير الطفل الصغير المصنوع مِن جريد النخل. تحركت فوق جسده. صعدت نحو وجنته. دغدغه ملمس جلدها الناعم فضحك. عادت برأسها لترفعها أمام عينيه.

لمحها الثعبان وهي ترفع رأسها فاتحة فمها أمام وجه الطفل الذي مد يده يداعبها. لفّ نفسه حول ذيلها وجذبها إليها. سقطت بجواره ملتفة حول نفسها ورافعة رأسها إليه. زعق فيها قائلًا:

- هل جننت؟
- لماذا؟
- هل كنت تنوين بث السمّ في رقبة الطفل؟
- أي سمّ، إنّ السمّ تحجّر داخل أنيابي منذ صعدنا إلى هنا. حتى أنيابي نفسها أصبحت مثل قطعة من المطاط وحتى لو ضغطت بها على رقبة الطفل فسيضحك ظنّا منه أنني أداعبه.

تنهد قائلا وهو ينظر إلى فأر صغير يلعب حول منه:

- وأنا أيضا. انظري إلى هذا الفأر الصغير الذي يلعب حولي، أنا الذي يمكنني أن أبتلع فأرا أكبر منه عشر مرات. لكنني كلما هممت باقتناصه، أشعر أنه سيقف في حلقي ويظل هناك حتى أختنق وأن عضلاتي لن تستطيع أن تحمله بعيدا إلى الداخل.

نظرا معا نحو حيوانات أخرى لم يكن من المنطق أن تجتمع معا. تقف الفريسة بكل عظمة أمام المفترس، ويقف المفترس في وداعة وخنوع أمام الفريسة.

مرت الأيام وغيض الماء. خرج كل من في السفينة، ظل كل منهم على نفس الحالة حتى تفرقوا.

آوي الثعبان والحية إلى شق في أحد الجبال. كان قد سبقهم إليه أحد أبناء نوح. نظرت الحية إلى الثعبان قائلة:

- لقد عادت أنيابي كما كانت وأشعر بحرارة السمّ وهي تسري في أوصالي.

سألها الثعبان قائلا:

- هل تفكرين في عضه؟

تنهدت قائلة:

- ربما أولادي يعضّون أولاده. أما أنا فقد فقدت كل رغبة في العضّ. ولو حدث فلن يكون أبدًا مع أحد أبناء نوح.

الصدق أم العدل

وقف أمام القاضي الذي طلب منه أن يحلف اليمين. قال له جمال:

- أنا لا أكذب أبدًا

أجابه القاضي ساخرا:

- لا أحد لا يكذب أبدًا

رد عليه منفعلًا:

- أنا، أنا لا أكذب أبدًا

ابتسم القاضي، ثم أجابه قائلًا:

- سنرى، والآن أخبرني ما اسمك
- اسمي جمال
- ومن سماك بهذا الاسم؟
- أبي
- أبوك؟
- نعم يا سيدي، أبي
- وهل تثق أنه أبوك بالفعل

تضايق جمال من السؤال. لكنه أدرك أن القاضي يختبره. أجابه بثبات:

- هكذا اعتدت أن أناديه. هو لم ينكر وأمي أيضا لم تنكر. ولم ينكر أحدهم أنه أبي.
- لكنك أنت شخصيًا لا تثق في أبوته.

سكت جمال لبرهة يفكر، ثم أجاب:

- فعلا، لا أثق

ابتسم القاضي وقد أحس باقتراب النصر:

- ما دمت لا تثق أنه أبوك فأنت أيضا لا تثق في طهارة ثوب أمك

امتلأ وجه جمال بالغضب، لكنه قرر أن يستمر في هذه المحاورة للنهاية، أجابه وهو يتلفت حتى لا يواجه عيني القاضي:

- فعلا، لا أثق
- كم سنك يا جمال؟
- ٢٧ سنة
- وكل هذه السنين، إذا سألك أحدهم عن أبيك، تجيبه بأن أباك هو هذا الرجل، دون أن تتأكد إن كان أباك أم لا؟
- نعم
- إذن فأنت تكذب منذ نعومة أظفارك.

ضحك من بالقاعة وشعر بعضهم بالمرارة. أحس جمال لبرهة بالهزيمة، لكنه فكر قليلا ثم ابتسم للقاضي قائلًا:

- سيدي القاضي، أنت تمثل العدل أليس كذلك؟
- نعم
- إذن فانت لم تظلم أحدا من قبل؟

بوغت القاضي بالسؤال. نظر إلى من في القاعة. أدرك أنه لا يستطيع أن يعلن أمام هؤلاء الناس أنه ظلم أحدًا من قبل. ستهتز صورته وسيتحدث الجميع عن القاضي الذي ظلم من قبل. وربما فقدوا ثقتهم به. اضطر أن يجيبه قائلًا:

- بالطبع، لم أظلم من قبل.

ابتسم جمال ثم سأله:

- ما اسمك يا سيدي
- اسمي مختار
- ومن سماك؟

لم يفهم القاضي لعبة جمال لكنه أدرك أنه يلاعبه. أجابه:

- يقولون أن شخصًا ما يدّعون أنه أبي قد سمّاني

صمت لبرهة ثم استدرك قائلًا:

- ولم أدع أبدا أنه أبي
- إذن أنت لا تثق في أنه أبوك؟
- نعم
- إذن أنت لا تثق في طهارة ثوب أمك

فكر القاضي في أن يتهمه بإهانته وإهانة القضاء، إلا أنه أدرك أن الوضع الآن أصبح لا يحتمل. سيعتقد الجميع أنه يتهرب من مواجهة جمال. أجابه بهدوء:

- نعم لا أثق

- عذرا سيادة القاضي. سنفترض جدلا أنّ أمك بالفعل امرأة غير شريفة.

سرت همهمات استنكار وابتسامات خفية في القاعة. أنهاها القاضي بطرقات متتالية على المنصة، ثم أشار لجمال أن يكمل:

- سنفترض أن أم سيادة القاضي امرأة غير شريفة. في هذه الحالة فليس عليك شيء، ولكن لنفترض أيضا أنها امرأة شريفة وأن أباك هو بالفعل أبوك، ألست في هذه الحالة ظالما لها في شرفها وظالما له بإنكارك أبوته لك.

احمر وجه القاضي خجلا. انفعل بشدة. شعر بعجزه عن التفكير.

أشار للشرطي الواقف بجوار جمال. أمسك بقلمه وبدأ في كتابة بضع كلمات في الأوراق التي أمامه ثم رفع صوته قائلا:

- يسجن شهرًا بتهمة إهانة أمّ القاضي.

الاتجاه

نظر إلى قائمة الطعام بتأفف، تسعة أعشار الأطباق الرئيسيّة من لحم الخنزير. عنّ له أن يطلب طبقا من المكرونة مع بعض من الصلصة الحمراء.

كان قد وصل إلى المدينة ليلًا. هذه هي مرته الأولى في ذلك البلد الأوروبي. كان جائعا، وكان هذا هو المطعم الوحيد القريب من الفندق. خاف أن يتحرك بعيدا فلا يستطيع العودة إلى الفندق بسهولة مرة أخرى.

يعلم تماما عجزه عن معرفة الاتجاهات. تحرك محاولا البحث عن مطعم آخر يقدم الطعام "الحلال". دار في الشوارع القريبة من الفندق وهو يحاول التركيز في اتجاهاته.

تذكر حين تأخرت أمه وهو في أول عام دراسي له في المدرسة. قرر ساعتها أن يفاجئها بالعودة وحده. ظل أكثر من ساعة يمشي وهو يتأمل معالمًا لا يعرفها.

يشعر أنه فقد الاتجاه فيعود مرة أخرى من حيث أتى لكنه يعتقد أنه دخل يمينًا بدلا من اليسار فيفقد الطريق مرة أخرى.

فكّر أن يسأل لكنه خاف. حذرته أمه من أناس أشرار يخطفون الأطفال التائهين. لاح له من بعيد خلال دوراته سور المدرسة من الخلف.

ارتاح صدره فدار حول السور حتى يصل إلى الباب. فوجئ عند وصوله أنها ليست مدرسته وإنما مدرسة أخرى تشبهها وسور أخر يشبه سور مدرسته.

عثر أخيرا على أحد المطاعم. تناول طعامه وتحرك راجعًا إلى الفندق. وجد نفسه في جهة أخرى أمام الفندق. نظر من بعيد متسائلًا. هل هذا هو الفندق الذي يقطن فيه.

إنه لا يتذكر أن للفندق باب صغير جانبي لدخول الحقائب. هل كان هناك باب صغير. هل هذا هو فندقه أم أنه فندق آخر يشبه المدرسة الأخرى.

قوام ممتلئ

لم تستغرق وقتا في ارتداء فستانها للخروج معي. كانت تقف على باب الغرفة مستندة بقوامها الممتلئ بعض الشيء على إطار الباب.

نادت ولكنها لم تستخدم حنجرتها في النداء. وسمِعْت،. لكنني أنا أيضا لم أستخدم أذني في السمع.

استأذنت من أجهزتي البدنية أن أرهقها مرة أخرى بالخروج بعد يوم عمل شاق، حاولَتْ - متعاونة مع إجهادي الذهني - أن تمنعني من الخروج طالبة للراحة، لكنني أجبرتها على الانصياع لأوامري.

أدرت محرك السيارة وانطلقنا معا.

كانت سعيدة جدا بالخروج معي. جلسنا على مقعدين متقابلين في المطعم الذي تفضله.

أخذت تدير الحوار في نواح شتى. كنت خير منصت لها، ولكن جهازي العقلي لم يستجب، ولم يصدر أوامره – إلا فيما ندر – للساني أن ينطق. ولم تفارق الابتسامة شفتيها.

انتهت السهرة وعدنا. عفوا عدت، فقد ظلت هي – حتى في أحلامها – ملتصقة بسهرتها معي.

لم تدخر وسعا في إسعادي. كانت كمن رقص الكون كله تحت قدميها. كانت كمن ولدت وقد كتب في صحيفتها أن تلك أسعد لحظات حياتها.

وضعت رأسي على الوسادة، وأخذت أستثير الأحلام كي تسابقني نحو نوم هادئ

ظلت هي مستيقظة. ولم أنم أنا. فرغم إجهادي الذهني والبدني، ظلت تطاردني نظراتها الباسمة ونحن جالسين في المقعدين المتقابلين، وكأنها تريد أن تقول لي، أن وجودي معها هو كل ما تتمنى.

ذهبت في النوم وأنا على يقين أن وجودي معها هو كل ما تتمنى، وأن وجودها معي هو المعنى الوحيد لوجودي.

بخار ماء

لم يكن سوانا على الطاولات المفروشة خارج المطعم، كان كل رواد المطعم بالداخل يلتمسون الدفء في هذا اليوم شديد البرودة. وقف طفل صغير خلف زجاج المطعم من الداخل. أخذ يلعب بالبخار الذي تكثفه أنفاسه الدافئة على الزجاج. داعبتُه بنقرات خفيفة بأصابعي على الزجاج. أخافته أصابعي فعاد بجسده فجأة إلى الوراء وسقط على ظهره، وبكى.

نظرتْ إليّ قائلة:

- لماذا لم تفكر في عواقب ما تفعل؟ لقد أخفته وجعلته يسقط.

نظرتُ إليها متعجبًا ولم أجبها. فوجئت بها وقد حملت حقيبتها واستعدت للرحيل. وقفتْ وبادرتني قائلة:

- أنا لا يمكنني البقاء مع رجل لا يقدر عاقبة ما يفعل.

تسمرتُ في مقعدي لدقائق بعد أن رحلتْ. لم أفكر في منعها من الرحيل. كنت أرغب في دقائق أفكر فيها فيما قالت. طلبت فنجانًا من القهوة وأنا أراقب الطفل وهو يبتسم لي ويشير لي بيده محييا. ابتسمت له وداعبته بوجهي وأصابعي. قلت لها في نفسي فيما بعد:

- أنا أيضا لا أستطيع البقاء مع امرأة تجعلني أفكر في كل شيء قبل أن أفعله.

مكة

أغلقت البيوت أبوابها ونامت، لا صوت، لا حركة، ولا حتى نسمة هواء تحرك أستار الكعبة، دار واحدة هي التي تتحرك، يتمايل من فيها بفعل الخمر على حركات لراقصة رومية وأخرى حبشية تنتظران بفارغ الصبر أن يتساقط الراقصون حولهما فتخلدان إلى النوم،

يقف في الخارج بعض من العبيد في انتظار سادتهم، يشغلون أوقاتهم بالحديث الهامس عما يفعله السادة حين يصيبهم السكر، قال أحدهم للآخر:

- إن سيدي حين يصيبه السكْر، لا يدري هل هو السيد أم أنا.

ضحك الآخر وقال له:

- يبدو أن الخمر تعيد سيدك إلى أصله

ضحك جميع العبيد إلا سُلَيْم. سأله أحدهم:

- ما لي أراك عابسا يا سُلَيْم؟ أراك منذ أن التقينا أمام هذه الدار وأنت ساهم لا تتحدث. أهي أول مرة ننتظر السادة أمام الباب ونحن نعلم ما يفعلون في الداخل مع أصحاب الرايات الحمر؟

نظر سُلَيْم إلى محدثه ولم يجبه، همس آخر في أذن السائل:

- اصمت يا أحمق. ألا تعرف أن أم سُلَيْم كانت من صاحبات الرايات الحمر
- من صاحبات الرايات الحمر؟
- نعم، بل كانت أيضًا أشهر عاهرة في غَطَفان

رد عليه الرجل:

- لم أكن أعلم هذا

ثم انتحى بصاحبه بعيدا وهو يلقي نظرة نحو سُلَيْم ثم أردف:

- لكن قل لي، لماذا لم تعلن للقوم اسم أبيه أو حتى تخيرت أحد الذين واقعوها ونسبت سُلَيْم إليه؟
- وهل لم تفعل. بل فعلت. جمعت كل من واقعوها قبل حملها بسُلَيْم لتنسبه لأحدهم.
- وبعد ...
- كان من جمعتهم من كبار سادة غطفان. فما كان منهم إلا أن أغدقوا المال عليها حتى لا تنسب الطفل لأي منهم.
- وماذا حدث بعد ذلك.
- واتفقوا على أن ينسبوه لواحد من العبيد كانت زوجته قد وضعت طفلا قبل أم سُلَيْم بأيام قليلة. لكن الطفل مات ساعة الوضع

نظر الرجل نحو سُلَيْم مشفقا ثم قال:

- لكنني لا زلت لا أجد سببا لصمته، فمن منا يعلم أباه. وحتى من يعلمه منا، لا يكاد يدري أهو أبوه حقًا، أم أنه نُسب إليه بعد أن وضع سيده بذرته في رحم أمه الجارية. ثم ....

لم يكمل كلامه فقد خرج أحد السادة يترنح، مستندا على اثنين من عبيده ثم توجه إليه قائلًا:

- لقد علمت أن زوجتك ستلد قريبا، أليس كذلك؟

العملات الفضية

كنا نلعب كعادتنا بجوار سور القطار الذي يفصل حينا عن الحي المقابل لنا.

قفز رجل فوق جزء متهدم من السور. لم يتمالك نفسه وسقط على الأرض. سقط من جيبه الكثير من العملات الفضية وتناثرت على التراب.

أسرعنا نحوه نساعده على الوقوف ثم بدأنا نجمع له عملاته الفضية التي تناثرت هنا وهناك. كان يتناول كل قطعة منا وهو يشكرنا.

انتهينا من جمع النقود. شكرنا مرة أخرى ومضى.

عدنا إلى اللعب مرة أخرى. صاح أحدنا أنه عثر على عملة صغيرة لم نكن لاحظناها ونحن نجمع للرجل عملاته.

عدنا إلى البحث مرة أخرى. تجمع في أيادينا خمس عملات فضية. خمس عملات ونحن خمسة، مصادفة عجيبة.

نظرنا إلى بعضنا البعض. قطع أيمن هذه النظرات قائلًا:

- هيا نجري وراء الرجل ونعيد له النقود.

فعلنا. بحثنا عنه في كل الشوارع والحارات، لكنه كان قد اختفى ولم نعثر له على أثر.

انتظرنا أن يقترح أيمن اقتراحًا آخر، لكن طارق هو من تكلم هذه المرة:

- يأخذ كل واحد منا عملة ويتصرف فيها حسب رغبته.

عاد أيمن للحديث مرة أخرى قائلًا:

- أنا جائع، ولو عدت إلى البيت فلن يسمحوا لي بالنزول مرة أخرى.

لم نفكر كثيرا. كان هذا بمثابة قرار أن نشتري لنا طعاما بهذه النقود.

ذهبنا إلى البقال. اشترينا خبزا وجبنًا وقطعة من الحلاوة الطحينية.

جلسنا أمام أحد البيوت وبدأنا في تناول الطعام. نظرنا إلى بعضنا البعض. لقد كنا خمسة. أما الآن فنحن أربعة. اختفى أحدنا دون أن نلاحظ. سأل خالد:

- أين حمدي؟

نظرنا جميعا نحو السور الذي ابتعدنا عنه مسافة ليست بعيدة لكننا كنا نراها بعيدة.

لمحناه وهو ينبش التراب بحثا عن عملات أخرى. فاته أن يشاركنا الطعام وهو يبحث عن فرصة ضائعة يقتنصها وحده.

محاولات

قالت:

- لقد حاولت.

قلت:

- وأنا أيضًا حاولت.

قالت:

- لكني فشلت.

قلت:

- وأنا أيضا فشلت.

قالت:

- هل نحاول مرة أخرى؟

قلت:

- سنفشل.

قالت:

- بالفعل سنفشل.

وقامت من على الطاولة لتغادر المطعم. كان هناك دمعة صغيرة تأبى أن تغادر عينيها. أو أن ترجع مرة أخرى لمجرى الدمع. استوقفتها قائلا:

- لنحاول مرة أخرى.

اختفت الدمعة فجأة واستحالت لابتسامة نصر تملأ عينيها وأجابتني قائلة:

- للأسف. سنفشل.

فاتنة الحي

تجمع الجيران أمام باب الشقة الصغيرة على ناصية الحارة. وقد أزعجهم الصراخ القادم من الداخل.

تقدم أربعة منهم ليستكشفوا الأمر. سمعوا صوت اسماعيل وهو يصرخ ويتألم. طرقوا الباب بهدوء ثم بعنف. جاءهم صوته من الداخل وهو يستغيث:

- الحقوني، ستقتلني. اكسروا الباب. الحقوني

بدأ رجلان في دفع الباب بعنف، انضم إليهم واحد آخر. استطاعوا أخيرا أن يكسروا الباب وانطلقوا إلى الداخل.

نظروا إلى بعضهم البعض في ذهول. كانت "فاتن" المرأة التي أدارت رؤوس رجال الحي تجلس فوق جسد زوجها القصير، ضعيف البنية وهي تكيل له الضربات، وتنشب أظافرها في وجهه وصدره.

تحرّك أحدهم محاولًا إبعادها عنه. تردّد كيف يمسكها ومن أين؟

مال خلفها وهي جالسة على صدر زوجها. سبحت يده في الفضاء حول جسدها الفائر وذراعيها البضتين. قرر في النهاية أن يأتيها من الأمام بدلًا من الخلف. مد يده وأمسك بمعصميها. دفعت يديه، لكنه عاد وأمسكهما مرة أخرى. رفع ذراعيها إلى أعلى محاولًا رفعها. قاومت. شعر فيها بقوة لم يكن يتخيل أنها تكون لامرأة فضلا عن هذه الفاتنة التي سحرته.

مد يده تحت ذراعيها فارتطمت بثدييها الذين كانا قد خرج غالبهما من فتحة الثوب. تحركتا شفتا الرجل متلمظًا وهو يرمق هذين الثديين النافرين أمام عينيه.

دفعها أمامه وهي تدفعه لتعاود الكرة مع الزوج الملقى على الأرض. أصبحت بين أحضانه. فكر كم تمنى أن يحتضن هذا الجسد. تذكر كيف حاول أكثر من مرة أن يستدرجها لتسمح له ولو بضمة تستمر لثوانٍ يطفئ بها لهيب رغبته. أو حتى قبلة صغيرة عابرة على خديها.

كانت بين أحضانه ترتجف. لكنه أدرك فجأة أنه هو الذي لم يعد يرتجف. لم يتحرك. لم تثر فيه أي رغبة حتى لو رغبة في أن يربت على كتفيها مهدئًا.

شعر فجأة بيديه تنتفضان كأنه ممسك بقطعة من النار المشتعلة. لكنها هذه المرة لم تكن هذه النار المثيرة التي تدفئ الرجال في ليالي الشتاء الباردة.

بل كانت نارًا حقيقية، تفني ولا تذر ...

ساعة الحساب

لمحتني واقفًا في انتظارها، فاقتربت مني سائلة:

- ما سبب وقوفك هنا؟
- أنتظرك
- لماذا؟
- لتأخذيني حيث تشائين
- لماذا؟
- لأنني أموت فيك عشقا
- تموت فيّ عشقا؟
- نعم
- وكيف متّ عشقًا وأنا لا زلت أراك أمامي؟
- لقد متّ عشقًا وأنا الآن أنتظر ساعة الحساب.

ضحكت بدلال ثم سألته:

- وهل تطمع في دخول جنتي؟
- وهل في العشق جنة؟ إنه النار أبدًا
- إذن فما فائدة الحساب؟
- مجرد إجراء شكلي.

ابتسمت بخجل قائلة:

- إذًا هيا بنا إلى ناري.

ابتسم هو الآخر وهو يضع يده في يدها قائلًا:

- أهكذا بدون حساب؟

وضعت رأسها في الأرض خجلًا وهي تضغط على يديه قائلة:

- وهل تملك محاسبتك من سبقتك إلى النار!

الندم

لم أنتبه يوما لكِ.

كنتِ تظهرين في كل الأشياء من حولي فأرى الأشياء كلها ولا أراكِ. لم أفكر يوما في التعبير عن احتياجي إليك، فأنت -دائما و أبدا- لم تمنحيني فرصة التفكير في فقدِك. كنت أرحل داخلي ألف مرة. وحين أعود في كل مرة، أجدك كما أنت، هادئة، مطمئنة، صانعة من صدرك أرق وسادة ومن عيونك كلها أقرب ملجأ.

أغيب يومًا، شهرًا، عامًا وأعود محملًا بأخطائي.

تتحدث أخطائي كلها طالبةً الغفران ويظل لساني صامتًا لا يستطيع أن ينطق ولو بكلمة واحدة. يركع ندمي تحت قدميك، وتظل قدماي منتصبتين ورأسي يصعد بكبرٍ نحو السماء. يحمّر ذنبي خجلًا، ويظل وجهي شاخصًا إليك بلا أدنى تعبير وكأنه لم يمتص ولا قطرة واحدة من الذنب.

وحين سألتك ذات مرة:

- كيف تقرأين بهذه السهولة كل هذه الأشياء داخلي؟!

ابتسمتِ في هدوء وأجبتِ:

- ربما لديك لغة واحدة للندم، لكنني أنا -وأنا وحدي- لدي ألف طريقة لترجمته.

طلب إضافة

كانت تنابع البوستات كما تفعل كلما لا تجد ما تفعله. تضحك على هذه الصورة، تبتسم لهذه الطرفة، تحزن على هذا الطفل المفقود، تكتئب لأخبار الوفاة وتشعر بالغضب من هذه الأدعية المغلوطة.

ظهر لها على الشاشة ضمن ما يظهر طلب إضافة جديد.

قرأت الرسالة. هذا الاسم ليس جديدًا عليها وهذا الوجه أيضًا، ليس جديدا بالمرة بل هو قديم جدًا. تذكرته كما تذكر أول مرة باغتتها فيها دورتها الشهرية.

عشرون عامًا مضت منذ آخر مرة. عشرون عامًا، وقلب أغلقته الأيام على قصة حب لم يكتمل. ربما لم يبدأ أيضًا، على الأقل من ناحيته.

ظل داخلها ومات داخلها. لا لم يمت!. كان فقط نائمًا، مستريحا لكن ليس كأهل الكهف، فقد عانى كثيرًا وهو ينتظر أي شمس تضربه ذات اليمين أو ذات الشمال.

عانى كثيرا وهو ينظر إلى الكلب الباسط ذراعيه عند مدخل الكهف يمنعه من المغادرة ويحرسه من أحلامه

نام كثيرًا، وها هي تشعر به الآن وهو يتقلب في الفراش مستعدا للاستيقاظ.

نظرت إلى الهاتف كأنها تستحثه أن يتصرّف هو. كانت كمن يستنجد به أن يرفض أو يقبل. أن يبعد عنها محنة اتخاذ القرار.

مدت إصبعها ليسبح متوترًا فوق فضاء الشاشة. كان إصبعها يهبط ليلمسها ثم يرجع مرة أخرى قبل أن يلمس باطنه باطن شاشة الهاتف.

تأرجح إصبعها يمينًا ويسارًا مترددًا بين القبول والرفض.

وضعت الهاتف على المنضدة حتى تهدأ قليلًا. مدت يدها مرة أخرى لتتناوله لكنها تراجعت. تراجعت عن تراجعها ومدت يدها. تراجعت مرة أخرى. غادرت الأريكة تاركة الهاتف مكانه. قررت أن تبتعد قليلًا حتى تهدأ.

جاءها صوت ابنها الذي يشاهد مباراة لكرة القدم وهو يصرخ باسم لاعب لا تعرفه. جلست بجواره تشاهد المباراة لأول مرة تقريبا في حياتها. نظر ابنها إليها، تحاشت نظراته. قامت. لم تعد ابنتها بعد من الجامعة. فكّرت أن تتصل بها لكنها خافت أن ترجع حيث يوجد الهاتف.

دخلت إلى المطبخ لتعد لها فنجانًا من القهوة. رنت موسيقى هاتفها المحمول بمقطع من أغنية لفيروز: "أهواك بلا أمل". اضطرتها نغمات الهاتف للعودة إليه. جاءها صوت زوجها يخبرها أنه اضطر للسفر إلى الغردقة وسيرجع في مساء الغد.

جلست على الأريكة. فتحت الفيس بوك. ضغطت بسرعة على قبول الصداقة ثم أغلقت شاشة الهاتف ووضعته على المنضدة.

كانت كمن يخشى أن ينفجر الهاتف في وجهها فجأة.

كانت كمن يخشى أن يخرج لها من داخل الشاشة حبها القديم ويتمثل لها بشرًا سويًّا.

الغفران

جلسا بجوار بعضهما البعض أمام الصنم. نظر كل منهما إلى الآخر. بدأت هي الكلام فسألته قائلة:

- اسأله
- بل اسأليه أنتِ
- لماذا اسأله أنا؟ أنت الذي سرق ولست أنا.
- لكنك أنت من خططت ومهدتِ لي طريق السرقة

نظر كل منهما إلى الآخر غاضبًا. ثم نظرا إلى الصنم متوسلين. قالت له وهي تشير للصنم:

- لماذا نسأله؟ أليس هو إلهنا الذي يعلم كل شيء.
- ربما نسي
- ينسى! هل أنت أحمق، كيف ينسى!
- إذن، ماذا سنفعل؟
- سنقدم له القربان ونرى. إن قبله فقد سامحنا على السرقة. هذا كل شيء.
- وماذا إذا لم يقبل؟!
- نقدم له قربانا آخر

- لكننا نقدم له شاة عجفاء. هل تعتقدين أنه سيقبلها. لقد رأيت أمامه من قبل ناقة شهباء وافرة اللحم.
- لا تقلق. سيقبل. إنه إله طيب. وأنا أعرفه جيدًا

وضعا الشاة المذبوحة أمام الصنم وانصرفا عائدين إلى بيتهما. كان طوال الطريق يلتفت نحو الصنم. لمحته وهو يستدير ناظرا فنهرته قائلة:

- لا تنظر خلفك هكذا.
- أريد أن أراه وهو يتقبل القربان.
- إنه لن يقبل القربان إذا رآك تنظر إليه. إنه لا يأخذ القربان إلا إذا كان وحده. إنه إله خجول.

رنت في أذنه كلمتا إله خجول. فكر فيما كان يفعل بالأمس. قال لنفسه:

- إله خجول. هذا جيد جدًا. إذن فهو لا يراني وأنا أضاجع زوجة جاري الجميلة. فلو فعل ذلك سيحمر وجهه خجلا مما تفعله معي.

عادا في الصباح فلم يجدا القربان. ابتسمت وخرّت أمام الصنم راكعة. ركع هو الآخر مقلدًا.

شاهد وهو راكع بعض الكلاب وهي تحوم قريبا من الصنم. همس إليها:

- أنظري إلى هذه الكلاب. ربما تكون غافلته وأخذت منه القربان. ولم يحصل هو على شيء.

نهرته بعنف قائلة:

- اخرس. كيف تغافل الكلاب إلهنا. ربما تكون قد أخذته فعلا، لكنه هو من سمح لها بهذا. الآن كل ما يهمنا أنه قبل القربان وانتهى الأمر. أخذه هو أو منحه للكلاب، فهذا شأنه.

ظلت راكعة لبعض الوقت ثم قامت قائلة:

- دعنا الآن نبحث عن سرقة جديدة ونفكر في قربان أكبر نقدمه في السرقة القادمة لإلهنا العظيم.

كفّارة

استقبلتُه عند باب السجن واحتضنتُه وقلت:

- كفّارة

قطب جبينه مضيقًا ما بين عينيه وقال لي:

- كفّارة! كفّارة عن ماذا؟! أنا لم أرتكب ذنبًا يستحق أن أكفر عنه.

احمر وجهي خجلًا. أمسك يدي ووضعها تحت ذراعه وانطلق بي بعيدًا عن القسم. ما إن ابتعدنا حتى وضع يده على كتفي وضمني إليه قائلا:

- هل كنت تريدين مني أن أتركه يصفك بالمومس وأن أسكت. هل إذا عوقبت عن أخذ حقي في هذا البلد يعتبرونه كفّارة.

لم أجبه. فقط احتنضت يده بين يديّ كأنني أعتذر.

أنا أعلم تماما أنه كان يدافع عن حقه. لم يكن ما فعله الضابط له علاقة بتنفيذ القانون. كان يكفيه أن يتعامل بآدمية أكثر. أو أن يطبق القانون ويقبض عليه بتهمة إشغال الطريق.

لم يضايقه أن الضابط اعتدي عليه وهشم "الفرش" الذي نتعيّش منه. لم يؤثر كل هذا فيه. لقد استسلم للضرب بكل هدوء. استسلم أيضا لضياع مصدر رزقه.

في ركلة أصابت وجهه. لم أشعر إلا وأنا أجري نحوه للدفاع عنه. لم أنتبه لما حدث إلا والعساكر يجذبونني من شعري ويدفعونني بعيدا عنه

لم أسمع سوى الضابط وهو يقول:

- خذوا هذه المومس بعيدًا عن هنا.

لم تكن كلمة مومس جديدة علي. كنت أسمعها أحيانًا كنوع من الغزل من المتسكعين هنا وهنا. سمعتها أيضا من زوجي شخصيا أكثر من مرة وهو يؤنبني على نزولي إلى السوق بملابس ضيقة. أو لأنه رآني أنظر نظرة لم تعجبه لأحد الشبان.

سمعتها كثيرا وتقبلتها كثيرا.

سمعها هو أيضا تقال عني كثيرا، لكنها هذه المرة كانت مختلفة. كانت ملوّنة بالقهر. ممزوجة بالسخرية وفوقية عانينا منها كثيرا.

لم يتمالك نفسه. انقض على الضابط وركله ركلة لم يستطع أن يحدد لها اتجاه، جاءت بين قدميه. سقط بعدها يمسك بخصيتيه وهو يتلوى على الأرض من الألم.

لم تكن السنة التي قضاها في السجن كفّارة. لكن الكفّارة الحقيقية هي أن ننسى ما حدث. لكنها كفارة مستحيلة.

احتقار

وقف عند مدخل المقهى ويده في جيبه. تردد قليلا، أخرج يده من جيبه ثم دخل إلى المقهى. جلس على أحد المقاعد متلفتًا حوله. مد يده مرة أخرى يحسب النقود التي في جيبه. تأكد أنها لا تزال كما هي أربعة جنيهات. جاءه عامل المقهى يسأله عن طلبه. مد يده وهو يرسم بها شكل الكوب وسأله بصوت خافت:

- بكم كوب الشاي؟

نظر إليه عامل المقهى باحتقار وأجابه قائلًا:

- ثلاثة جنيهات
- وحجر الشيشة؟
- جنيهان

فكّر قليلا، أخذ يفاضل بين كوب الشاي ذي الثلاثة جنيهات وحجر الشيشة الذي سيوفر له جنيها آخر. طلب من عامل المقهى بنفس الصوت الخافت:

- حجر شيشة لو سمحت.

تركه عامل المقهى بعد أن منحه نظرة احتقار جديدة ثم عاد إليه وفي يده الشيشة. وضعها أمامه بعنف حتى كادت أن تتحطم حين وضعه على الأرض. نظر إليه باشمئزاز ثم تركه ومضى.

أنهى عامل المقهى عمله في المساء. مر على بائع الفاكهة قبل أن يذهب إلى المنزل. توقف يتفحص أسعار الفاكهة. لم يتحرك بائع الفاكهة من مكانه. ظل ينظر إليه بلا مبالاة وهو جالس في مقعده.

جاءت إحدى السيارات الملاكي وتوقفت أمام دكان الفاكهة. قام البائع من مكانه مسرعا، هرول ناحية صاحب السيارة، انحنى أمامه مستندًا على زجاج نافذة السيارة، تبادل معه بعض كلماتٍ ثم عاد وانهمك في إعداد ما طلب منه.

لم يلتفت ولو مرة واحدة إلى عامل المقهى. كان يتحرك بين أقفاص الفاكهة من أمامه ومن خلفه وكأنه أحد الحواجز التي لا يسعه إلا الدوران حولها ليصل إلى ما يريد.

ما أن انتهى من بيع الفاكهة لصاحب السيارة حتى رفع يديه فوق رأسه محييًا ومودعًا. عاد إلى الدكان وفي طريقه منح عامل المقهى نظرة احتقار ثم ذهب ليجلس إلى مقعده

غادر عامل المقهى محل الفاكهة وهو يضع يده في جيبه يحصي ما به من نقود. قرر في النهاية أن يتنازل عن شراء المانجو التي طلبتها منه ابنته. قرر أن يدفع جزءًا من أجرة الحجرة المتأخرة.

تحرك أمام بائع الفاكهة وهو ينظر إلى الجهة الأخرى متحاشيًا أن تتلاقى نظراته بنظرات البائع.

المؤتمر١

خرجت من بين شفتيها كلمة "مراد" بطريقة لم آلفها من قبل. كان حرف الراء قويًا وواضحا لكنه يهتز بطريقة لم أسمعها من قبل. لم تكن هي طريقة من يلثغ في حرف الراء. انتظرت منها أن تنطق اسمي مرة أخرى لكنها لم تفعل.

جاء دورها لإلقاء كلمتها في الاجتماع السنوي للشركة متعددة الجنسية التي أعمل أنا بها في القاهرة وتعمل هي في فرعها بدبي.

بدأت كلمتها بالإنجليزية ثم استأذنت من الحاضرين الذين كان منهم الكثيرون من الأوروبيين لتقول كلمة قصيرة باللغة العربية.

اعتدلت –أنا- في انتظار حرف الراء الذي لم ألحظ فيه أي غرابة حين تحدثت بالإنجليزية.

تعمدت أن أنصت بأذني مركزًا عيني على شفتيها. لم ألحظ في البداية نظراتها لي. اعتقدت لأن لها خبرة في إلقاء الخطب والتحدث في الاجتماعات فإنها تنظر إلى الجميع -واحدًا تلو الآخر- لتشعرنا جميعًا أنها تحدثنا فردًا فردًا.

لدهشتي، لم تفعل، ظلّت عيناها في عينيّ وعيناي اللتان كنت أنظر بهما إلى شفتيها تركتا مكانهما والتقتا بعينيها.

انتقل قلبي من مكاني عابرًا المقاعد التي أمامي ليستقر هناك. لم يعد مرة أخرى لا وهو ولا عيناي.

انتهت من كلمتها باللغة العربية. لأجد أن كل ما فهمته من كل ما قالت مجموعة من الراءات المتتابعة.

المؤتمر ٢

قبل دخوله إلى المؤتمر قدموا له جهازًا صغيرًا وسماعة ليترجم له ما يقوله الحاضرون.

وقفت مراسلة حسناء تطلب الحديث. قالت:

- سيدي الرئيس.

ابتسم لها بعد أن سمع الجهاز يترجم له ماقالت:

- حبيبي الوحيد.

أكملت حديثها قائلة:

- أولا، أود أن أشكرك

ترجمها له الجهاز وهو يتطلع إلى عينيها:

- أولا،أنا أحبك

سألته بعدها سؤالها الرئيسي والوحيد:

- هل حقًا ستعلن الحرب؟

سمعها وقد ترجمها له الجهاز:

- هل حقًا ستتزوجني؟

لم يشعر سيادة الرئيس بنفسه إلا وهو يجيبها:

- بالطبع، سأتزوجك وفورًا

سمعتها هي كما قالها هو وسمعها جميع من في القاعة:

- بالطبع، سأعلن الحرب وفورًا

القربان ١

وقفت نيما على باب الكهف آخر النهار تنتظر قابيل أن يعود من حقله. ما إن وصل إليها حتى بادرته قائلة:

- هل ستترك هابيل يتزوجني وتتزوج أنت من ديما؟
- أتعتقدين أن أترك له هذا الجمال يتمتع به هو وأتزوج أنا من ديما القبيحة؟
- إذن ماذا ستفعل حتى نتزوج؟!
- إما أنا وإما هو. اطمئني يا نيما

ذهب قابيل لآدم. وجد هابيل هناك جالسا تحت قدميه في سكون. نظر إلى أخيه مغتاظًا لكنه أخبر أباه برغبته في الزواج من نيما.

لم يزد آدم عن أن طلب من كل منهما أن يقدم قربانا إلى الله، ومن يتقبل الله منه قربانه فسيتزوج من نيما.

كانت ديما تقف بعيدا عنهم تعد الطعام لكنها سمعت الحوار. بكت. آلمها أن الكل يرغب في الزواج من نيما الجميلة. أما هي فلا أحد يفكر فيها. التفت هابيل نحوها وهي تنحني على القدر وقد سقطت دموعها رغمًا عنه بداخله.

توجه نحو أبيه قائلا:

- لقد قبلت بالزواج من نيما فقط نزولًا على رغبتك. أما أنا فديما هي الأعز والأحظى عندي. ويكفيني أنها جاءت معي إلى الدنيا في نفس الوقت واقتسمنا معا نفس الرحم.

تضايق قابيل من انتصاره في معركة لم يخضها بعد. التفت لأبيه قائلًا بغرور:

- وأنا لا أقبل إلا إذا قدمنا القربان.

أحلام أنعام

وقف يدخن سيجارته في الشرفة. ظهر له خيال إحدى الجارات وهي تقف أمام المرآة. لم يستطع أن يتبين تفاصيل جسدها وإن كان يعرفها من كثرة ما تلصص عليها.

ذكره ظلها الغائم بأحلام ظلت تراوده منذ طفولته من حين لآخر. لا يدري هل هي مجرد أحلام التصقت بذاكرته فاختلطت بأحداث أخرى من الحقيقة فامتزجا ليكونا هذه الصورة المختلطة بين ما حدث بالفعل وما لم يكن له وجود إلا في أحلامه، أم أنها حقيقة حدثت لكنها مع مرور الزمن تشوشت وأصبحت تتراقص كالأحلام.

كان مما يبدو له كالحلم، مشهد له هو وأنعام داخل السرداب، هكذا كان يطلق على الغرفة الصغيرة في خلفية الفيلا التي تهبط عن مستوى الطابق الأرضي بارتفاع الدرجات الخمسة الحجرية عند مدخلها. كان هذا السرداب هو مكانه المفضل حين يرغب في الاختباء لبعض الوقت أو للحصول على قدر من وحدة مطلقة بعيدًا تمامًا عن عيون الآخرين. تخزن فيه جدته الأثاث القديم وبعض أغراضٍ لم يعد لها مكان في الفيلا لكنها لا زالت تحمل ذكرى خاصة تجعل من الصعب التخلص منها.

كان لا يتجاوز الخامسة أو السادسة، لا يستطيع أن يحدد بوضوح. يُظهر له الحلم مشهدًا مشوشًا لجسده وهو عارٍ تمامًا في أحضان أنعام.

أحيانا تظهر هي أيضًا عارية مثله وأحيانًا أخرى يلتف حول نصفها السفلي ملاءة حمراء.

ينتهي المشهد بدخول جدته لتأخذ شيئا ما من الغرفة. لم يظهر له المشهد أبدًا كُنه هذا الشيء. تغادر بعدها الغرفة بعد أن تنظر في اتجاهه هو وأنعام وتبتسم. ظل هذا المشهد يعاوده باختلافات بسيطة في التفاصيل. كان من حين لآخر يتذكّر تفصيلة ما تستمر معه لبعض الوقت ثم تتلاشى لتفسح المجال لتفصيلة أخرى تطرد الأولى أو تضاف إليها.

لم يكن هذا هو الحلم الوحيد. كان حلمه الآخر لرجلٍ لا يعرفه يرقد بجوار أنعام في الفراش. يذهب هو إليها ويهزها. تنظر إليه فزعة. وتخرج من تحت الغطاء عارية، وتحمله إلى غرفته. تضعه في الفراش وتقبله قبلة طويلة في فمه. تمد يدها تداعبه هناك قليلا، يحاول أن يدفع يدها، لكنها لا تتركه حتى ينام.

يأتيه هذا الحلم غالبا بصورة أنعام، لكن في أوقات قليلة كانت العارية التي في الفراش هي أمه ثم تتحول بعدها إلى أنعام عندما يدخل إلى الغرفة.

كان ما يدهشه، أن هناك مرات يكتمل له الحلم مع أمه ولا تتحول في النهاية إلى أنعام.

مذكرات بلون القهوة

سيجارة بلا دخان

عثر بالصدفة على مفكرة مذكراتها ملقاة بجوار السرير. يبدو أنها سقطت منها دون أن تشعر.

كانت مفكرة صغيرة ذات غلاف بني اللون. أمسك بها وبدأ في القراءة، لم يشغل باله بما كتبت في الصفحات الأولى من قطع نثرية وشعرية قصيرة ساذجة نوعا ما وإن كان أعجبه منها بعض التعبيرات. توقف عند قطعة كتبت فيها:

بالأمس كان عيد زواجنا السابع، سبع سنوات لم أر خلالها شيء مضيء سوى الضوء الصادر من سيجارة مشتعلة.

ذكّرته كلماتها بموقف مرّ بهما منذ أكثر من عام تقريبا على زواجه بها.

ذات ليلة وهما جالسين يشاهدان التلفاز، انقطع التيار الكهربائي فجأة. كان وقتها يشرب سيجارة ويتابع دخانها وهو يتصاعد في الهواء. سألها:

- هل لدينا شموع؟

أجابته:

- نعم، في المطبخ، لكن لماذا؟
- لا أستمتع بالتدخين في الظلام. أحب أن أرى الدخان حتى أشعر أنني أدخن

استوقفته قائلة وهي تبتسم ابتسامة ساخرة لم يرها:

- لكنني أستمتع برؤية أي شيء يضيء في الظلام حتى لو كان هذه السيجارة المشتعلة.

طعام بارد

أكمل تصفح المفكرة عابرا قطعها النثرية ورسومات بالقلم الجاف لقلوب وورود وأغصان متشابكة. قرأ فيما كتبت:

يشكو دائما من برودة الطعام. هل فقط الطعام هو البارد؟

ابتسم ساخر وهو يتذكر موقف حدث ربما أكثر من مرة وليس مرة واحدة. كانت قد وضعت الطعام على المائدة. مد يده بالملعقة يتناول قليلا من الأرز. ما إن وضعها في فمه وبلعها حتى ناداها قبل أن تصل إلى المطبخ قائلا:

- هذا الأرز بارد.
- لقد قمت بتسخينه منذ ثوانٍ، ربما هي برودة الجو
- لكنني لا أحب أن آكل الطعام باردًا هكذا
- تفعلها كثيرا عندما تطلب طعامًا من الخارج.
- لكن هذا الطعام ليس من الخارج.
- اعتبره من الخارج.

تحولت ابتسامته الساخرة لغضب وضيق وهو يقرأ ما كتبت بعد هذه الجملة:

لم يشك مرة واحدة من برودة الطعام من الخارج، لكنه دائم الشكوى من طعامي مهما كان ساخنا وناضجا

حليب بني غامق

وضعت إناء الحليب على النار، ووقفت أمامه تنتظر غليانه. جاءها صوته من غرفة النوم يصرخ عليها مناديًا. مدّت يدها إلى مفتاح الموقد وهدأت الشعلة. ذهبت إليه فبادرها قائلا:

- أين الجورب البني الغامق الذي به خط بني فاتح قليلًا
- من المؤكد، أنه في الدرج، هل بحثت جيدًا؟
- وهل طلبتكِ لتسأليني إن كنت بحثت جيدًا أم لا؟
- اهدأ، اهدأ. سأبحث لك عنه

أخذتْ في البحث في درج الجوارب وفي الأدراج الأخرى. تذكرت إناء الحليب فعادت مسرعة إلى المطبخ، لكنه كان قد فار وانسكب أكثر من نصفه على الموقد.

لم تشعر إلا وهو خلفها يشاهد ما تفعل. قالت له:

- لن تشرب شايك بالحليب اليوم، فالمتبقي يكاد يكفي الأولاد.

نظر إليها غاضبا، ثم غادر المطبخ وهو يصيح فيها:

- أنت امرأة مهملة.

تذكر هذا الحوار وهو يعاود القراءة في مذكراتها وقد كتبت فيها:

أنا امرأة مهملة، أما هو الذي ارتدى الجورب أمس وألقاه في سلة الغسيل دون أن أعلم ودون أن يتذكر، لا يمكن أبدا أن يصف نفسه بالإهمال ولا أن يعترف أبدًا بخطأه. يلومني على فوران الحليب ولا يلوم نفسه على اهتمامي بأشياءٍ أخرى تخصه.

السلم المحترق

صعد السلم الخشبي لتغيير أحد المصابيح، طلب منها أن تمسك بالسلم حتى لا يتزحزح فيسقط به. ما إن أمسكت بالسلم حتى سمعت رنين جرس الباب. أخبرتها أمها أنها ستحضر اليوم لزيارتها.

وقفت مترددة هل تترك السلم أم تترك أمها على الباب. رفعت رأسها نحوه قائلة:

- أحدهم على الباب

أجابها دون أن ينظر إليها:

- دعيها على الباب قليلا حتى أنتهي

أفلتت منه كلمة "دعيها" وتمنى أن لم تكن لاحظتها، لكنه تعجب حين تركت السلم وذهبت لتفتح الباب.

عادت لتجده قد نزل من على السلم تاركًا المصباح المحترق دون تغيير. نظر إليها غاضبًا ثم مد يده ليصافح حماته وعلى وجهه ابتسامة بلا معنى.

لا يدري لماذا تذكر هذا الموقف، وهو يتصفح المذكرات. فلم يكن هناك ما يشير من قريب أو بعيد لما حدث.

وجد فقط جملة صغيرة ربما كتبت بعد هذا الحادث بأيام تقريبًا، تقول فيها:

ليس مهمًا أن تنظر من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى الأسفل، المهم أن تدرك أين أنت من نفسك لا ممن حولك ولا ممن يعتبر نفسه أعلى سلم الحياة.

مرتان فقط

وقفا في انتظار هدوء السيارات حتى يعبرا الشارع. أمسك بيدها وعبر بها الشارع مسرعا. ما إن وصلا إلى الرصيف الآخر حتى سحب يده من يدها بسرعة، كأنه ينهي مهمة كانت ثقيلة على قلبه.

تكرر الأمر بعدها بأيام. لم تدعه هذه المرة يمسك يدها. ضمتها إلى صدرها حتى لا يلتقطها. تعجبت أنه لم ينتبه لما فعلت. أمسك ساعتها ذراعها من الخلف وعبر بها الشارع.

في ساعة عتاب بعدها بشهور عديدة، ذكرته بكل هذه التفاصيل. اعتذر لها ساعتها أنه لم يكن يقصد ولم يفكر في الأمر كما فكرت فيه.

تذكّر هذا الموقف وهو يقرأ ما كتبت في المذكرات:

قال لي: أنه لم يلمس يد خطيبته الأولى سوى مرتين فقط. مرة منها وهو يعبر بها الشارع. لكنه لم يخبرني هل نفض يدها من يده بعد العبور أم لا. هو أيضًا يذكر أنهما مرتان. واكتفى أن يذكر بعدها كلمة "فقط". القضية ليست في فقط. القضية أنه لا زال يذكر عدد مرات لمس يده ليدها ولم ينس أنهما كانتا مرتين.

قطعة نثر

لفت نظره قطعة نثر لم يتخيل أنها من كتبتها. لكنه أحس أنها حتى لو كانت نقلتها فإنها تقصد كل كلمة فيها:

هل تسمح لخيالك أن يأتيني الليلة، أتهامس معه، ألمسه، أسمع نبضاتي في قلبه، أحتضنه، أفعل ما أشاء، وما يشاء. مشكلتي الكبرى أني أعرف ما أشاء. لكنني لم أعرف أبدا ما يشاء ومتى يشاء وكيف يشاء.

تذكر حين جلست بجواره مرة وهو جالس يشاهد مبارة لكرة القدم في التلفاز. اقتربت منه. وضعت ذراعها تحت ذراعه وهمست له قائلة:

- هل يمكن أن تحضنني قليلا.

نظر ساعتها إليها وزمّ شفتيه وهو يلقي نظرة على المبارة. استجاب لها واحتضنها بجسده. لكن قلبه وعقله وأشياء أخرى كانت في عالمٍ آخر ولم تستجب لها.

إصبع الروج

دخل إلى الحمام باحثا عن بنطاله الذي كان يرتديه بالأمس. لم يجد سواه في سلة الغسيل. تعجب!، لم يجد قميصه أو ملابسه الداخلية ولا أي ملابس أخرى.

مد يده وتناول البنطال. وضع يده في أحد جيوبه وأخرج منها إصبعا للروج. وضعه بسرعة في جيب بنطاله الذي يرتديه، ثم خرج من المنزل متوجها إلى عمله.

في الطريق، تعجب من ترك امرأته لهذا البنطال بالذات دون غسيل. إن فراغ سلة الغسيل يؤكد له أنها قامت بالغسيل أمس. هل عثرت على إصبع الروج؟! ولماذا لم تخبره. ولماذا أيضا تركت البنطال دون أن تغسله.

كان قد دخل بالأمس إلى أحد حمامات المكتب ولمح إصبع الروج هذا على الحوض. فكر أنه ربما نسيته إحدى زميلاته في المكتب.

قرر أن يلعب معهن قليلا حتى يعرف من صاحبة هذا الإصبع. وضعه في جيب بنطاله وخرج من الحمام. استدعاه مديره فجأة. كلفه بمهمة شغلته طوال اليوم. نسي في زحمة العمل قصة إصبع الروج هذا.

عاد إلى المنزل مجهدا وخلع بنطاله وألقاه بآلية على السرير دون أن يفكر فيما وضع داخل جيب بنطاله.

أخذ يفكر كيف فكرت زوجته. ربما اعتقدت أن له عشيقة.

في المساء. جلس بجوارها يشاهدان التلفاز. انتظر أن تسأله فلم تفعل. حاول هو أن يحوم حول الموضوع من بعيد أكثر من مرة لكنها لم تعطه إجابة أو تلميحا يشعر به أنها تعرف موضوع إصبع الروج

ظلت طبيعية جدا كعادتها. وضع نفسه مكانها لو علمت الحقيقة. ربما جال في ذهنها أنه فتح إصبع الروج في الحمام ليعرف لونه، ربما تشممه أيضا. ربما أخذ يتخيل شفاه زميلاته ويقارنها بلون الإصبع. ربما تمنى في قرارة نفسه أن يطبع قبلة على شفتي صاحبة إصبع الروج. بل وربما أحس بالقبلة فعلا. ربما تمنى أن ينشأ بينه وبين صاحبة إصبع الروج حوار حول هذا الأمر. ربما تتطور الحوار إلى أشياء أخرى.

قرر في النهاية ألا يتحدث في الأمر.

تذكر هذه القصة وهو يقرأ القطعة التالية في المفكرة ذات الغلاف البني:

هل اللعب مع الآخرين له مذاق خاص؟! هل أنا غير صالحة للعب؟! هل أنا قطعة المكعبات الوحيدة التي ليس لها مكان في كل الألعاب التي يبنيها؟!

مذكرات بلون النعناع

مذكرات بلون النعناع

انتهز فرصة ذهابها لزيارة اختها، فقرر أن يقضي وقتا أطول مع المذكرات. بحث في كل مكانٍ عنها فلم يجدها. لفت نظره مفكرة أخرى يظهر جزء من غلافها أخضر اللون في درج به بعض ملابسها الداخلية.

تذكّر أنه لم يفتح هذا الدرج سوى مرة أو مرتين من قبل وربما عن طريق الخطأ. أخرج المفكرة من الدرج. جلس على طرف السرير مسندا ظهره إلى ظهر السرير وبدأ في القراءة.

كانت المفكرة تبدأ بكلمات مكتوبة بقلم أخضر اللون، جاء فيها:

ربما نبّهتك القهوة قليلا أو أزعجتك، لا أدري. المهم، دعنا الآن من القهوة. واهدأ قليلا بتذوق بعض من النعناع.

شراب النعناع

جلس على طرف السرير يقرأ ما كتبت في هذه المفكرة ذات الغلاف الأخضر:

على ذكر النعناع:

فتح الباب ليجدني جالسة على الأريكة ممسكة ببطني وأنا أتلوى من الألم. أسرع نحوي دون أن يخلع حذائه، سألني:

- **ما بك؟**
- **مغص خفيف، يبدو أن معدتي أصابها بعد البرد**
- **ارتدي ملابسك إذن، سنذهب إلى الطبيب**
- **لا داعي، سأغلي بعض النعناع وستهدأ معدتي**
- **سأغلي أنا النعناع، لا تتحركي**

تحرك بسرعة إلى المطبخ، سمعته من مكاني وهو يملأ البراد بالماء، سمعته وهو يشعل الموقد. تناهى إلى سمعي صوته وهو يغسل شيئا ما تحت الصنبور، تعجبت.

عاد إلي مسرعا يسألني عن مكان النعناع. أرشدته إلى مكانه. عاد بعدها يخبرني أن علبة السكر ليس بها سكر. قمت من مكاني كي أملأ العلبة. نهرني قائلًا:

- **لا تتحركي، أخبريني فقط أين تضعين أكياس السكر**

أخبرته أن كيس السكر موجود في الدرفة السفلية بجوار الموقد. عاد مرة أخرى ليسألني:

- هل تريدين كيس النعناع داخل المج أم لا؟
- لا، إنه يضايقني أثناء الشرب

دقائق، وعاد وفي يده المج الخاص بي وبه شراب النعناع. تعجبت، إنه لاحظ أنني لا أشرب إلا في هذا المج. أدركت الآن ماذا كان يغسل تحت الصنبور. فقد كان هذا المج بجوار الحوض وبه بقايا الشاي الذي تناولته منذ ساعات. تعجبت أكثر وأكثر، لأن المغص اختفى تمامًا وحتى قبل أن أتناول النعناع

عاد لي المغص مرة أخرى بعد دخولي إلى المطبخ وفوجئت بما حدث. كان كيس النعناع ملتفًا حول الملعقة وملقى على رخام المطبخ وحوله السكر المتساقط والمبتلّ بالشراب.

لا، سأتحمّل المغص ولن أتركه يجهزلي شرابًا مرةً أخرى، هههههه

دمعة بطعم النعناع

احتفلنا اليوم بعيد ميلادي. فوجئت به وهو يدخل من باب الشقة حاملًا في يده علبة التورتة. طلب مني ألا أتحرك من مكاني.

دخل إلى المطبخ. دقائق وعاد يحمل التورتة وعليها شمعتان. وضعها على الطاولة أمامي ثم مد يده في جيبه وأخرج علبة صغيرة، قدمها لي قائلا:

- كل سنة وأنت طيبة

سألته بخبث عن المناسبة. أجابني وهو يقوم من مكانه مسرعا في طريقه إلى المطبخ لإحضار طبقين والشوك والسكاكين:

- ألا تذكرين حادثا مهما جدا اليوم.

ابتسمت قائلة:

- لا، لا أذكر

بدأ في تقطيع التورتة ثم قال وهو يتحاشى النظر ناحيتي

- إنه عيد ميلادك، هل هناك من ينسى عيد ميلاده؟

كان يكذب، وأنا أعرفه جيدا عندما يكذب. يشغل نفسه دائما بأي شيء آخر. تلمع عيناه وتخرج الكلمات من شفتيه مسرعة

ومرتبة ترتيبا جيدا كأنه رددها بينه وبين نفسه مرات ومرات ليحفظها عن ظهر قلب.

احتفلنا بعيد ميلادي. قضينا وقتا لطيفا معا.

لم أشأ أن أخبره أن عيد ميلادي كان بالأمس. وأنني أعلم أنه يعلم أنه نسيه بالأمس وتذكره اليوم.

كان كل ما يكفيني أنه تذكّرني حتى ولو كان تذكره لي جاء متأخرا بعض الوقت.

أفلتت منه دمعة وهو يقرأ هذا الجزء من المذكرات. دمعة شعر أنها لو سقطت على شفتيه لأحس فيها بطعم النعناع.

عروس تجيد عمل النعناع

كنا مدعوين معا إلى حفل خطوبة إحدى قريباتي. التقينا بأخي وزوجته. جلسنا سويا ودار الحوار. مالت زوجة أخي مقتربة من أخي وهي تنظر لي قائلة:

- بالفعل، أجمل زواج في الدنيا هو الزواج عن حب. إن حبنا يزيد يوما بعد يوم.

كانت كأنها بكلامها هذا تسخر من زواجنا التقليدي، وهي التي عاشت قصة حب طويلة مع أخي قبل الزاوج.

كنت على وشك إجابتها، فإذا بزوجي يجيبها قائلا:

- أما أنا، إذا سألتني عن رأيي، فإن حبي لزوجتي لا يمكن أن يزيد ملليجرام واحد. فحبي لها قد وصل للقمة التي ليس بعدها قمة. هذا رأيي.

ثم التفت لي قائلا:

- وأعتقد أن هذا رأيك أيضا!

قبل أن أجيبه، وقفت زوجة أخي مستأذنة للذهاب للحمام. نظر أخي إليَّ قائلا:

- إنها دائما لا تجيد اختيار كلماتها. اعذريني. لكن زوجك دافع عنك بقوة.

نظر زوجي إلى أخي قائلا:

- أنا لم أكن أدافع. ما قلته هو حقيقة ما أشعر به.

كان كلامه صادقا ودافئا وحقيقيا.

تبسمت ابتسامة ساخرة رغما عني بعدها بشهور، عندما كان زوجي يطبع قبلة على بطني التي تحمل مولودنا الأول. وكان أخي يطلب مني أن أبحث له عن عروس جديدة بعد أن طلق زوجته. عروس تجيد الحب أكثر مما تجيد الحديث عنه. تجيد عمل النعناع لا أن تقدم وصفاته للآخرين.

طفلي الأول

كانت ولادتي صعبة. علمت فيم بعد أن الجميع ظلوا بالخارج يدعون لي ويقرأون القرآن. علمت فيم بعد أنه اختفى بعيدا عن الجميع. بحث عنه أخي، فوجده جالسا خارج المستشفى، يشعل سيجارة وينظر إلى الفراغ. اقترب منه فلمح آثار دموعٍ لم تجف بعد على وجنتيه.

أفقت فسألت عنه. دخل إلى الغرفة. كانوا قد أخذوا الطفل إلى الحضانة. سألته:

- ما رأيك في طفلنا؟ هل هو جميل

أجابني بارتباك:

- أنا لا أعرف هذا الطفل بعد. لكنني أعرفك أنتِ

عفوا، قصيرة جدا
أحيانًا

ياقوت

قال لها:

- أنت قطعة من الياقوت الخالص.

سألته مبتسمة:

- وهل رأيت الياقوت؟

أجابها مرتبكا:

- لا، لكنني سمعتهم هكذا يقولون.

سقف

قالت له:

- نعيش عالمين تحت نفس السقف، وكلما حاولت أن أجعله عالما واحدا، ينهار السقف.

كتاب

قال لها:

- وعندما أظهرتِ لي غلافك، أحسست أني هالك، وعندما تصفحتك تأكد هلاكي.

ممارسة البكاء

قال لها:

- هناك شيء عجيب جدًا في حزنك. تحزنين أنتِ، وقلبي أنا هو من يمارس فعل البكاء.

ستائر

قال لها:

- لم يكن العالم معنا عندما التقينا أول مرة، ولن يكون معنا إذا فكرنا أنها المرة الأخيرة. فأغلقي معي هذه الستائر على العالم، ودعينا نلتقي في هدوء.

توبة

خرجت عن طوع حبي. تمردت كثيرا. وفي النهاية، عادت. وضعت على رأسها غطاءً وطلبت الدخول إلى قلبي لتفكر في طريقٍ للتوبة.

لم يكن قلبي ليرفض توبتها. لكنه يرفض أن تطأه قدماها وهي لم تتب بعد.

قطعة جبن لذيذة

قال لها:

- ومهما ملأوا أطباقي عسلا، فلن أتنازل أبدا عن قطعة الجبن التي تقدمينها لي ..... من بين شفتيكِ

منفى

قالت له:

- إنهم يخرجون علينا. هل هي الثورة؟

قال لها:

- لا تخافي. لقد أودعت حبي لك في كل بنوك العالم. وفي المنفى يحلو العشق.

دوران

قال لها:

- لقد أخرجوني من دائرتك غصبا. لكنني ورغما عنهم، أدمنت الدوران حول محيطك.

صفائح دموية

قدمت لي قلبها داخل طبق من الصفيح الرخيص. تناولتُ القلب وألقيت بالطبق بعيدا.

تذكرت بعد فوات الأوان أن هذا الطبق – على رخصه – كان يحمل قطرات من دمها الممتزجة بحبها لي.

تراب على نعل

قالت له:

- إذا أحببتني فأدخلني محراب قلبك بنعلَيّ. فإن لم يضايقك التراب الملتصق بنعلَيّ، يمكننا وقتها أن نكمل.

شطرك

لقد رسموكِ في فنجاني، وعمدوني بمائك. ولكنني وبدون أن أدري، يممت وجهي شطرك.

تاريخ

قال لها:

- إنني أقرأ التاريخ الذي تكتبين، وكل ما يزعجني، أن أرى نفسي صفحة طويت من بين صفحاته.

ريموت كونترول

قال لها:

- ما زالت قلوعي راسية في انتظارك. رفعت شارة استسلامي لقلبك. أوقفت ساعاتي وأغلقت كل وسائل الاستقبال داخلي. وضعت جهاز التحكم عن بعد -خاصتي- بين يديكِ. فمتى تشائين يا حبيبتي، اضغطي على أي الأزرار لإيقاظي.

ممارسة البكاء

قالت له وهي تغادر المكان:

- لقد احتملت شرودك عني ألف مرة.
  واستجبت لجنونك ألف مرة
  وعالجت نفسي (بنفسي) من خداعك ألف مرة
  ولما أتيت لأعاتبك في مرة،
  كانت هي المرة.

قال لها دون أن يوقفها عن الرحيل:

- لو عاتبتني منذ أول مرة
  ربما لم أكن لأفعلها بعدها
  أي مرة.

صلاة وحج

قال لها:

- أحببتني حجا، وأحببتك صلاة. فأتممتِ –أنتِ- فرضك مرة حول كعبتي ورحلتِ. وظللت أنا أذهب إلى محرابك كل يوم للصلاة.

فأجابته:

- أحببتك حجا، لأنك كالكعبة، واحدة وليس لها شبيه. وأحببتني صلاة، ليمكنك في أي لحظة أن تبدّل المحراب.

حوار

لقد حاورته آلاف المرات، ولم أصل لشيء. ولم نصل لشيء. كان هناك حاجزٌ يعوق اللغة. يجعل من المفردات أكثر من معنى.

لقد حاورته آلاف المرات. وحينما نظر في عيني، ونظرت في عينيه، عادت المفردات لتتشكل من جديد. أصبح للغة سلاحها النفاذ الذي تخترق به العوائق. غسل يديه في راحتي وقرأ على باب رحمي اسم مولودي منه، ونقر نقرة خفيفة على شفتي فانفرجت له مصاحبة لأساريري، وانطلق من داخلي آهة طويلة تعادل قاموسا من كلمات العشق والوله.

لقد حاورته آلاف المرات، وسأظل أحاوره. ففي النهاية تنام يداه في يدي، وتنقر شفتاه شفتي، ويكتب على باب رحمي اسم مولودي منه.

تلوث

قال لها:

- خلعت قلبي مرتين، مرة حين التقينا ومرة حين افترقنا. حين التقينا خلعته لأقدمه لك، وحين افترقنا خلعته لأنه تلوث بحبك.

حجروأمنية

وقفت على حافة النهر وألقت حجرا ونظرت إلى قائلة:

- أتعلم أنني وقفت هنا –في نفس هذا المكان- منذ عام تقريبا وألقيت حجرا وتمنيت حبك.

وضعت يدي على رأسي أتحسس أثر جرحٍ حدث لي منذ عام تقريبا، وأجبتها قائلا:

- رأسي علم، وقلبي نفذ الأمنية

مجتمعاتنا الصغيرة

مجتمعاتنا الصغيرة. هي هذه التفاصيل التي لا يراها سوانا. هذه الابتسامة المشتركة على موقف لا يفهمه الآخرون. هذه الغمزة بنصف عين حين يقدم لنا أحدهم فنجانا من القهوة به فقاعة، فنتذكر فورا، كيف التقى طرف إصبعي بطرف أصبعك ونحن نحاول فرقعتها. هذه النقرة بإصبعك الخنصر على الطاولة فأفهم أنا أنك تريدين مني أن أغير مسار الكلام مع من معنا.

مجتمعاتنا الصغيرة هي عالمنا الخاص الموازي للعالم الآخر الي نعيشه مع الآخرين.

عالمٌ يجعله الآخرون ونحيا به -أنا وأنت- حميمية خاصة حتى في وجود الآخرين.

مركز صيانة

أصلحَتْ قلبي ومنحتني شهادة ضمان مدى الحياة.

أخذت قلبي وعدت. وحين أردت تشغيله، اكتشفت فجأة أنها نسيت معها مفتاح التشغيل.

الغناء والرقص

يرقص الخلاف بيننا ساعات ويغني الصفاء ساعة.

وأظل أنا في كل ساعات الرقص أحلم بساعة الغناء.

وفي ساعة الغناء، يظل قلبي يغني أغنية راقصة.

عصير ليمونة

قالت له:

- سأعصر على قلبي ليمونة وأغفر لك خيانتك لي.

قال لها:

- وأنا لأجل قلبك سأزرع حديقة قلبي كلها بالليمون

فانفجرت قائلة:

- وهل تعتقد أن قلبي سيتحمل كل هذا الليمون ولن يذوب.

صورة وصورة

أعطيتها صورة وأعطتني صورة. كنت كلما اشتقت إليها، أتأمل صورتها وأقبلها. ولما سألتها عن صورتي لديها، وضعت إصبعا على شفتيها قائلة:

- اقترب وتأمل

ولما اقتربت، وجدت أجزاءًا من ملامحي قد التصقت بشفتيها.

أساسًا و أصلًا

قالت له:

- تمثلتك. أصبحت حركاتي مرآة لحركاتك. أقطب جبيني مثلك. أضع كفي على مقدمة رأسي عندما تفكر مثلك. أصبحت أبتسم مثلك. أتنحنح مثلك. أتغابى مثلك. أتجاهل الأشياء مثلك.

أصبح كلي -قلبا وقالبا- مثلك.

أصبحت أبدأ كلامي بكلمة "أساسًا" ونسيت تماما لازمتي المشهورة "أصلًا"

أصبحت لك صورة وأصبحت لي أصلا

وبعد أن تعلمت من أجلك كلمة "أساسًا"، وجدتك قد تركتني "أصلًا"

قال لها:

- أعرف تماما ما فعلتِ من أجلي. أدرك -مسلّما- حجم التغيير الذي قمتِ به من أجلي. وأوكد لك أنني لمسته.

أصبحت أراني فيكِ وأصبحت أرى حركاتي في حركاتك.

لكنني أصبحت عندما أسمع منك كلمة "أساسًا" افتقد كثيرا عذوبة كلمة "أصلًا" على شفتيكِ.

لهذا فإنني وبكل أسف، وقبل أن أفقد كل إحساسي بكلمة "أساسًا"، تركتك "أصلًا".

سيادة العبودية

قالت له:

- هناك ألف امرأة مثلي يمكنها أن تقف على بابك. وهناك ألف امرأة مثلي يمكنها أن تركع في رحابك. وهناك -أيضا- ألف رجل مثلك يمكنه أن يعفر ثيابه على تراب قلبي. وألف رجل مثلك يمكنه أن يلقي بنفسه من أعلى قمة للجبل كي يحضر لي وشاحا حملته الرياح بعيدا عن رأسي.

لكنني اخترتك أنت. كي أغسل عينيك بجمالي وأدعم قلبي برجولتك.

فرجاءً، لا تجعل مني عبدة لك حتى يمكنني أن أجعل منك سيدا.

الشيطان يعترف

قال لها:

- في البداية قارنت بينكما وبعدها ندمت.

فمثلك لا يقارن

وفي النهاية وعندما اخترتك أنتِ، ندمت أكثر.

فمثلي لم يكن لملاك مثلك.

ومثلي لم يكن إلا لشيطانٍ مثلها

فاعذريني يا ملاكي، دعي الشياطين تلعب بالنار معًا وابحثي لك عن ملاكٍ يستحق نومة هانئة تحت جناحك.

رقصات

جعلني أرقص فرحا مرة. وأرقص ألما ألف مرة. لكنني كلما رقصت من الألم، تذكرت رقصة الفرح اليتيمة وتغير الإيقاع واستحالت كل آلامي في حبه فرحا.

الشيطان يعترف

أخرجت من حقيبتها أصبع الروج وطلبت مني أن أغمض عيني قليلا حتى تنتهي من وضعه. وبعد أن انتهت، سألتها عن السبب فأجابت:

- ربما لا يعجبك نصف شفتي بأحمر الشفاه ونصفهما الآخر بدونه.

ابتسمت لها قائلا:

- في المرة القادمة، أوقفي المهمة في المنتصف وستتكفل شفتاي بإتمام المهمة.

تحولات

بدأت صوتًا، فأخرجته من أذني

تحولت صورة، فأخرجتها من عيني

تحولت فكرة، فأخرجتها من عقلي

تحولت نبضًا، فلم يبق لي إلا الموت،

أو أتركها تعبث بقلبي كما تشاء.

المركب والمسدس

أخرجت ورقة وصنعت منها مركبا. وورقة أخرى وصنعت منها مسدسا.

وضعتهما أمامي وسألتني:

- هل ستجدف معي نحو مستقبلنا؟

وقبل أن أجيب، أزاحت المركب بعيدا وقربت المسدس.

حصار

نشرت جواسيسها على مداخل قلبي. زرعت أجهزة تنصت في أوردتي وكاميرات للمراقبة تحت شراييني. حاصرت عيوني بالمدافع وآذاني بأجهزة للتشويش. وضعت الحواجز أمام قدميّ. وكبلت يديّ بالأصفاد.

وضعت كمامة على أنفي. وأجهزة استشعار عن بعد تراقب حركات فكي وتترجم ما يقوله فمي.

وقفت أمامي بعدها بزيها العسكري وقد أغرق صدرها بالنياشين ولمعت النجمات على كتفيها. قالت بحزم تخفي تحته أنوثة متلونة:

- هكذا يمكنني ضمان حبك.

ابتسمت وأنا أتذكر أنها نسيت وسط كل هذه الاحتياطات أن تتحكم في عقلي.

دارت نصف دورة حولي وابتسمت قائلة:

- تعتقد أنني نسيت عقلك؟! لقد تركته عن عمد. دعه يفكر كما يشاء. فبدون أدوات لديه لن ينفعه التفكير ولو كان أنبغ العباقرة.

عبقرية هي ... وغبي أنا.

تاريخ الصلاحية

قالت له:

- فسدت علاقتي بك، أصابها العطب. رغم أن تاريخ الصلاحية المدوّن على العبوة لم يحن بعد

قال لها:

- لو احتفظت بها في مكانٍ مناسب لما فسدت. لكنك أنت من تركها في الخارج حتى فسدت.

أربع كلمات

قالت له:

- ينقصنا معًا أربع كلمات.

سألها:

- ماهي

فأجابت:

- " زوجيني نفسك"

سألها متعجبا:

- هاتان اثنتان فقط ؟!

أجابته:

- الاثنتان الأخرتان ربما تتغيران مع الوقت

أدرك -وقتها- أنها تتعجل الزواج.

إقامة جبرية

وجودك في حياتي يعطل قوانين دولتي. يوقف أجهزة دولتي لأجلك. يطلق المظاهرات في شوارعي فتنتفض واضعة متاريس ومكونة لجان شعبية لحماية الأرواح والممتلكات.

وجودك في حياتي يعقد اجتماعات بي في كل المحافظات والقرى. يبدأها جميعا علنية ثم تتحول إلى سرية لمناقشة التعاون العسكري بين بلدينا ووضع خطط لمقاومة التدخل في شئون دولتينا.

وجودي في حياتك يضعني معك على العرش. وبعد أن أطمئن لجلوسي، يعطي أوامره بتحديد إقامتي وكلما حاولت أن أهرب يصدر أمرا شفويا باعتقالي رهن الإقامة الجبرية.

يعذبني ثم يطلق من أجل خاطري سراح كل معتقلي قلبي، ويصدر قرار العفو عن كل متمردي جسدي.

تحرّش

تحرّش بقلبي، ولما صرخت. أبلغ هو الشرطة أنني من وضعت قلبي عاريًا بين يديه.

توهة

لا تدع طريقًا معي إلا سلكته. فإذا أحسست في مرة بإحساس التائه. تكون عندها عندي قد وصلت.

قهر

أريد أن أخلع ثيابًا التصقت بي قهرًا وأرتديك. لكنّني أخشى أن تلتصق بي رغبة، وأخلعك قهرًا.

حواجز

تجاوزت كل الحواجز تباعًا. وسقطت قبل الحاجز الأخير. لا أدري، هل أقول ليتها لم تتجاوز، أم ليتها لم تسقط.

غفرت

حاولت أن تغفر له، فجرّبت خطيئته. غفرت له، ولم تستطع أن تغفر لها.

الفهرس

مواق ١
عمل مرهق ٢
مياه لها مذاق مختلف ١٧
الحب اللي كان ٢٠
صرصور ٢٣
الصف الأعوج ٢٨
قدر فول ٣٠
مظروف قديم جدًا ٣٢
خجل ٣٧
نوما هانئا ٤٠
القطار ٤٤
مانجو ٤٦
السيل ٥٠
عروسة قطنية ٥٢
المولد ٥٥
سرقة ٥٨
الحية والثعبان ٦٠
الصدق أم العدل ٦٢
الاتجاه ٦٦
قوام ممتلئ ٦٨
بخار ماء ٧٠
مكة ٧١
العملات الفضية ٧٤
محاولات ٧٦

فاتنة الحي ٧٨
ساعة الحساب ٨٠
الندم ٨٢
طلب إضافة ٨٣
الغفران ٨٥
كفّارة ٨٨
احتقار ٩٠
المؤتمر ١ ..... ٩٢
المؤتمر ٢ ..... ٩٤
القربان ١ ..... ٩٦
أحلام أنعام ٩٨
مذكرات بلون القهوة ١٠٠
سيجارة بلا دخان ١٠١
طعام بارد ١٠٣
حليب بني غامق ١٠٤
السلم المحترق ١٠٦
مرتان فقط ١٠٨
قطعة نثر ١٠٩
إصبع الروج ١١٠
مذكرات بلون النعناع ١١٢
مذكرات بلون النعناع ١١٣
شراب النعناع ١١٤
دمعة بطعم النعناع ١١٦
عروس تجيد عمل النعناع ١١٨
طفلي الأول ١٢٠
عفوا، قصيرة جدا ١٢١

أحيانًا ١٢١
ياقوت ١٢٢
سقف ١٢٢
كتاب ١٢٢
ممارسة البكاء ١٢٣
ستائر ١٢٣
توبة ١٢٣
قطعة جبن لذيذة ١٢٣
منفى ١٢٤
دوران ١٢٤
صفائح دموية ١٢٤
تراب على نعل ١٢٥
شطرك ١٢٥
تاريخ ١٢٥
ريموت كونترول ١٢٥
ممارسة البكاء ١٢٦
صلاة وحج ١٢٦
حوار ١٢٧
تلوث ١٢٧
حجر وأمنية ١٢٧
مجتمعاتنا الصغيرة ١٢٨
مركز صيانة ١٢٨
الغناء والرقص ١٢٩
عصير ليمونة ١٢٩
صورة وصورة ١٢٩
أساسًا و أصلًا ١٣٠

سيادة العبودية ١٣١
الشيطان يعترف ١٣١
رقصات ١٣٢
الشيطان يعترف ١٣٢
تحولات ١٣٢
المركب والمسدس ١٣٣
حصار ١٣٣
تاريخ الصلاحية ١٣٤
أربع كلمات ١٣٤
إقامة جبرية ١٣٥
تحرّش ١٣٦
توهة ١٣٦
قهر ١٣٦
حواجز ١٣٦
غفرت ١٣٦

تناهى إلى سمعي وأنا أقف حائرًا في المنتصف بين الشقتين صوت ارتطام بشيءٍ معدنيٍّ أسفل السلم. ربّما قطّة أو ربّما هو ابن عرس وقد ارتطم بإحدى صفائح القمامة وهو يسلك طريقه محاذيًا سور السلم صاعدًا إلى أعلى يبحث عن حظيرة دجاجٍ تكون صاحبتها قد نسيت أن تؤمّن مداخلها جيدًا.

ساد صمتٌ مفاجئ. هدأت أنفاس العروس وهي مشبعة بماء الحياة. هدأ الشاب صغير السن وهو ينثر في فضائه الضيق ماء الحياة. وسقط البلطجي على الأرض من تأثير المخدر فاقدًا الحياة حاملًا معه ما تبقى من ماء الحياة.

أخذ بائع الفول يجمع الأطباق الألومنيوم والبلاستيك والأقفاص التي كانت تمتلئ أول الصباح بتشكيلة من الجرجير والفلفل والبصل بنوعيه الأخضر والأصفر وحبّات الطماطم والليمون. والتي انتهى خلال ساعات قليلة غالب ما في هذه الأقفاص مع فراغ قدر الفول.

رأيتني وأنا أحاول تخليص قدمي العالقة في حفرة ضيقة بين بلاطتين من البلاط البازلتي. تقدمت مني بسرعة. لم تنطق بكلمة، كل ما فعلته أن انحنيت بجواري. ضغطت على مؤخرة الحذاء بإحدى يديك وباليد الأخرى أمسكت كاحلي بكل رقة ثم رفعت قدمي لتخرجها من الحذاء.

كتابي

تصميم الغلاف : حاتم بكري